داخلي شيطان

الكاتب

زين الدين زيدان

لا تثق بروح تدّعي أنها طيبة، فطبيعة البشر خائنة، وليس من المنطق أن تكون أرواحهم صافية.

لا أعلم لماذا وثقت بتلك الروح، رغم أنني لا أعرفها، لكن شيئًا غامضًا في دفترها جذبني، وكأن كل صفحة تهمس لي بأن هناك ما يجب أن أعرفه، ما بين السطور يكمن السر الذي يهيمن على فضولي.

لستُ مجنونًا... لكنني أحببت ذلك.

فعندما كان يسيطر على جسدي، كنت أشعر بشيء غريب وجميل، كأنه ينتزع الحزن من قلبي ويتركه خفيفًا، بلا ألم، بلا وجع.وفي تلك اللحظة، أحببت ذلك المكان الذي يدعى... **عالم اللاوعي**.

لم أكن أعلم أنه أراد أن يكون الوحيد الذي يقتلني، ويحرق قلبي

بجعلي أرى جسدي وهو يتمزق **جزءًا بعد جزء**

كنت أعلم أن السحر لا ينتهي بسهولة، وأن نهايته دائمًا مؤلمة. وكان خالد يحذرني حين قال: ليس كل شيء يُؤخذ بالسحر.

لكنّي غامرتُ بأكثر شيءٍ أحبّه... **وهناك فقط أدركتُ خطئي.**

آسر

كانت شمس الصباح تتسلل ببطء إلى أزقة القرية الصغيرة، والديوك تملأ الأجواء بصياحها المعتاد. ارتدية حقيبتي المدرسية ، وخرجت مسرعًا إلى الطريق المؤدي إلى المدرسة المتوسطة، على جانب الطريق، لمحت ليان، ابنة عمي، تسير بجانب صديقتها. رفعت رأسها نحوي بابتسامة سريعة وألقت عليا بتحية صباح واكملت معها طريق حتي وصلنا لمدرستنا كانت معي بنفس المدرسة التي بها انا. لم يكن بيننا شيء مميز في تلك اللحظة؛ مجرد أقارب يلتقون صدفة كل صباح، يتبادلان التحية ثم يكمل كل واحد منهما طريقه وكأن شيئًا لم يكن.

وصلت إلى المدرسة، نفس الصفوف القديمة، الجدران التي يغطيها الطباشير، والملعب الواسع الذي يحتشد فيه الطلاب في فوضى

وضحكات. جلست في مقعدي المعتاد قرب النافذة، بينما دخلت ليان إلى صفها في الطابق الآخر.

كنا نلتقي أحيانًا في الساحة وقت الاستراحة، مع أبناء العمومة الآخرين. يضحكون، يتبادلون القصص عن المعلمين، ويتشاجرون على الكرة في الملعب. كل شيء كان عاديًا، طبيعيًا، لا يحمل أي معنى أبعد من صلة القرابة.

وفي نهاية اليوم الدراسي، حين خرج الطلاب في مجموعات صغيرة، مرّ آسر بجانبها وهي تودع صديقاتها. لوّحت له بيدها بخفة، فرد التحية بنفس العفوية. ثم افترقا، كلٌّ إلى بيته.

مرت الأعوام سريعًا، وكأنها لم تكن أكثر من صفحات تُقلب في كتاب الزمن. لم يعد الصباح كما كان في المدرسة المتوسطة، ولم يعد الطريق الترابي يحمل تلك البراءة الطفولية.

* * *

ها انا الآن في المرحلة الثانوية. حقيبتي أثقل، وملامحه تغيرت، صارت أطول قامة، وصوته أكثر عمقًا، وكأن الزمن أعاد تشكيلي بصمت.

في المدرسة الثانوية، في أولى سنة، لم يكن كل شيء ضحكًا ولعبًا كما كان في السابق. الجدران القديمة ما زالت تحمل آثار الطباشير، لكن الجو العام صار مختلفًا، أكثر جدية، أكثر صرامة.

جلست في مقعدي الأمامي، أنظر إلى السبورة المليئة بالمعادلات، أفكاري تاهت بعيدًا. لم أجد ما يلهمني في الدراسة كما اعتادت ان اشارك اصدقاء الاجوبه، بل اصبح عقلي يتوزع بين أحلام أكبر وأفكار لم أعرف لها اسمًا بعد.

كنت أحيانًا أسرح في تفاصيل صغيرة لا ينتبه لها الآخرون؛ صوت المعلم وهو يشرح، نظرات الطلاب المتبادلة، والهدوء المفاجئ الذي يخيم على الصف قبل الامتحان.

بدأتُ أشعر بشيء جديد في داخلي، مزيج من فضول وضياع. لم أعد ذلك الطفل الذي يركض في الحقول بعد المدرسة، بل صرتُ شابًا يحاول أن يجد مكانه في عالم أكبر من قريته الصغيرة، في أوقات الاستراحة كنت أجلس بين زملائي، أستمع إلى ضحكاتهم وأحاديثهم المتحمّسة. كانوا يتجادلون عن المباريات، أو يتحدثون عن أحلامهم في المستقبل. بعضهم كان يحلم بالسفر إلى المدينة الكبرى، وآخرون يخططون لدراسة الطب أو الهندسة. أما أنا، فكنت قليل الكلام، أكتفي بابتسامة عابرة أو كلمة مقتضبة، ثم أغرق في أفكاري.

وفي الليل، كنت أعود إلى غرفتي الصغيرة المطلة على الحقول. أفتح النافذة فيتسلل النسيم البارد، ثم أجلس إلى مكتبي الخشبي العتيق، وأكتب في دفتري كلمات مبعثرة لا يفهمها أحد غيري. كنت أكتب عن الحيرة، عن الأسئلة التي لا تنتهي، وعن بحثي عن

معنى للحياة. لم أكن أدري أن هذه المرحلة ستفتح لي أبوابًا لم أتخيلها قط، وأن قلبي سيشرع في رحلة لم أخطط لها.

مع بداية الفصل الدراسي الجديد، أعلن مدير المدرسة عن تنظيم رحلة ميدانية إلى المدينة. استقبلت الخبر بشيء من الحماس؛ فقد كانت فرصة للهروب من الروتين اليومي ورؤية عالم مختلف. وفي صباح الرحلة، ركبت الحافلة وجلست إلى جوار النافذة أراقب الطريق الممتد. كنت أظنها رحلة عادية، ولكنها لم تكن كذلك.

وصلت الحافلات إلى وجهتها بعد ساعات من السير، فتوقفت في ساحة واسعة تظلّلها الأشجار، وبجوارها مبانٍ قديمة ومتحف صغير خُصّص للزائرين. كان الجو مشبعًا برائحة التراب المبتل، والهواء يحمل شيئًا من البرودة رغم أشعة الشمس المتسللة من بين الغيوم. نزل الطلاب واحدًا تلو الآخر، يتجمعون في مجموعات صاخبة، يلتقطون الصور ويستعدون لجولة طويلة.

كنت أسير إلى جوار رفاقي، أستمع إلى أحاديثهم، حين لمحت ليان تسير غير بعيد برفقة صديقاتها. لم أتوقف عند الأمر طويلًا، ومضيت في طريقي. وبعد قليل، وبينما كنت في الممر المؤدي إلى الحديقة، التقيت بها صدفة، وحدها هذه المرة. تحدثنها قليلاً ثم اخبرتني.

ـ كيف حالك في دراستك لقد تغير شكلك منذ ان كنا نلتقي في مدرسة الاعداديه وكيف حال رحلة معك.

أجبتها بهدوء:

– ممتعة، على الأقل أفضل من مقاعد الدراسة.

ابتسمت بخفة ثم رفعت يدها لتقي وجهها من أشعة الشمس القوية، فلاحظت أنّها لم تحمل قبعتها معها، قلت لها :

– يبدو انكِ نسيتي قبعتك ... والشمس اليوم حادة.

أجابت :

نعم لم اكن اعلم انها ستكون شمس حادة اليوم.

نزعت قبعتي الشمسية وقدمتها إليها:

– خذي هذه، ستفيدك أكثر.

ترددت قليلًا ثم قالت:

– لا داعي، ستتعب من دونها.

ابتسمت مطمئنًا:

– لا تقلقي، أنا معتاد على الشمس.

أخذت ليان القبعة شاكرة، ووضعتها على رأسها لتقي وجهها من أشعة الشمس، ثم مضت بخطوات هادئة نحو صديقاتها. تابعت أنا طريقي مع رفاقي إلى داخل الحديقة الواسعة، حيث الأشجار العالية تصنع ممرًّا ظليلًا، والعصافير تتنقل بين الأغصان بأصواتها الرنانة. كان الطلاب يتوزعون في كل مكان، بعضهم يلتقط الصور، وبعضهم يركض بفضول لاكتشاف المكان.

دخلنا قاعة المتحف الصغير، فوجدنا جدرانها مكسوّة بلوحات تاريخية وصور لمدن قديمة، ومعروضات أثرية موضوعة خلف زجاج سميك. وقف أحد المعلمين يشرح لنا تفاصيل ما نراه، بينما انشغل بعض الطلاب بالهمس والضحك، وأخذ آخرون يلتقطون الصور خفية. كنت أنظر إلى المعروضات بعينٍ ساهمة، لكن عقلي كان بعيدًا، شاردًا بين فكرة وأخرى.

حين خرجنا إلى الساحة الخارجية، جلس معظم الطلاب على المقاعد الخشبية ليستريحوا ويتناولوا طعامهم. جلست مع أصدقائي، وبينما كانوا منشغلين بالأحاديث والضحك، لمحت ليان من بعيد تجلس مع صديقاتها. كنّ يتبادلن الطعام والضحكات، وهي تعدّل القبعة على رأسها من حين لآخر. لم يكن في المشهد ما يلفت الانتباه لغيري، لكنه شدّ نظري للحظة أطول مما يجب، ثم أسرعت بتحويل بصري كي لا ينتبه أحد.

مع تقدّم الوقت أعلن المعلمون عن استمرار الجولة، فانقسمنا إلى مجموعات صغيرة لزيارة بقية أرجاء المكان. سرت في ممشى تحيطه الأشجار العالية من الجانبين، وكان زملائي يسبقونني بخطوات. التفتُّ إلى الجانب الآخر فإذا بليان تمر برفقة إحدى صديقاتها في الاتجاه المقابل. كانتا تتحدثان بانسجام وتضحكان بخفة، ولم تلتفت هي نحوي. مررنا بجوار بعضنا كما لو كنا غريبين في طريق مزدحم، غير أنّ لمحة خاطفة من عينيها، عابرة وسريعة، بقيت راسخة في داخلي وكأنها أكثر من مجرد مصادفة عابرة.

تابعت السير في الممشى حتى انتهى بنا الطريق إلى ساحة واسعة، تتوسطها نافورة قديمة يعلوها تمثال حجري بسيط. اجتمع الطلاب حولها في حلقات صغيرة، بعضهم يلتقط الصور، وآخرون يرمون قطع النقود في الماء كنوع من المزاح. جلست على مقعد

قريب أراقب المشهد بصمت، والهواء العليل يهبّ من بين الأشجار، يحمل معه رائحة الأعشاب الطازجة.

اقترب مني أحد أصدقائي قائلاً بمرح:

ـ ألا تنضم إلينا؟ إنهم يستعدون للذهاب إلى التلّ الصغير لمشاهدة الإطلالة.

أجبته بابتسامة مقتضبة:

ـ سألحق بكم بعد قليل.

غادر مسرعًا، وبقيت أتابع حركة الطلاب المبعثرة في المكان. لم تمضِ دقائق حتى رأيت ليان تخرج من بين الزحام مع صديقتها نفسها، لكن هذه المرّة افترقت عنها بعد بضع خطوات. توقفت ليان عند ظلّ شجرة قريبة من النافورة، تبحث في حقيبتها الصغيرة كأنها نسيت شيئًا. لم أدرِ كيف وجدت نفسي أتجه نحوها بخطوات مترددة، حتى صرت على مقربة منها.

رفعت رأسها فجأة، فالتقت نظراتنا للحظة قصيرة. بدت متفاجئة بعض الشيء، ثم قالت بنبرة عابرة:

ـ أأنت هنا وحدك؟

ترددت لحظة قبل أن أجيب:

ـ أجل، جلست أستريح قليلاً. أنتم أيضاً ستصعدون إلى التل؟

أجابت وهي تغلق حقيبتها:

ـ نعم، يبدو أن الجميع متحمسون لذلك.

ساد صمت قصير، قطعه صوت المعلمين من بعيد وهم يطلبون من الطلاب الإسراع للحاق بالجولة. أشارت ليان بيدها نحو الطريق وقالت:

ـ هيا، لا نتأخر.

سرت بجوارها بضع خطوات، ثم سبقَتني بخفّة لتلحق بصديقاتها، تاركةً في نفسي أثرًا لا أعرف كيف أصفه.

بدأ الطلاب يصعدون الطريق الحجري المؤدي إلى التلّ، وكانت الأشجار الكثيفة تحيط بالمكان من الجانبين، فتنساب خيوط الشمس من بين الأغصان لتشكل بقعًا ذهبية على الأرض. كان الطريق متعرّجًا بعض الشيء، ومع ذلك كان الحماس ظاهرًا على وجوه معظمهم، يتبادلون الأحاديث ويضحكون وكأنهم في مغامرة صغيرة.

كنت أمشي بخطوات هادئة خلف مجموعتي، وأتأمل الهواء العليل الذي صار أبرد كلما ارتفعنا. في منتصف الطريق التفتُّ فرأيت ليان تصعد مع صديقاتها، تضحك على تعليق أطلقته إحداهن، بينما تثبت القبعة على رأسها كلما داعبها النسيم. حاولت أن أبدو غير مبالٍ، فأشحت بنظري سريعًا، لكن شيئًا داخلي أبى أن يتجاهل وجودها.

حين اقتربنا من القمة، بدأ التعب يظهر على بعض الطلاب، فجلسوا على الصخور ليستريحوا قليلاً. توقفتُ بدوري، ورفعت بصري لأجد ليان واقفة على مقربة، تمسح جبينها بمنديل ورقي. التقت أعيننا مرة أخرى، لكنها هذه المرة لم تَحُد بسرعة، بل استقرّت لثانية أطول، هزّت رأسها موافقة، ثم لحقت بصديقاتها من جديد. أما أنا، فتابعت خطواتي وأنا أشعر أن هذه اللحظات العابرة تحمل معنى أكبر مما تبدو عليه.

وعندما وصلنا أخيرًا إلى القمة، انكشفت أمامنا لوحة طبيعية بديعة: الحقول الممتدة كرقعة خضراء واسعة، تتخللها بيوت القرية الصغيرة، والسماء الزرقاء الصافية تحتضن الأفق البعيد. تعالت أصوات الطلاب بالدهشة والإعجاب، بعضهم التقط الصور، وآخرون أخذوا يصفقون ويهتفون بمرح.

وقفتُ عند حافة التلّ، أراقب المنظر بصمت، وإذا بليان تقف غير بعيد، يلفح الهواء خصلات شعرها فتتمايل مع حركة القبعة. لم تلتفت إليّ، لكن وجودها القريب جعل قلبي يضطرب دون سبب واضح.

بعد أن أمضى الطلاب بعض الوقت في القمة، أعلن المعلم بصوت مرتفع أن وقت العودة قد حان. بدأ الجميع بالنزول من التلّ في صفوف متفرقة، تتعالى ضحكاتهم وتعليقاتهم الساخرة من التعب الذي شعروا به. بعضهم انشغل بالتقاط الصور الأخيرة، وآخرون كانوا يتسابقون نزولًا كالأطفال.

سرت مع مجموعتي بخطوات متأنية، وكان الهواء العليل يهبّ علينا كأنّه يودّعنا. وبين الحين والآخر، كنت أسمع صوت ليان مع صديقاتها يعلو بالضحك خلفنا، ثم يخفت مع ابتعادهنّ، حتى اختلط مع أصوات بقية الطلاب.

عند وصولنا إلى الساحة الكبيرة عند مدخل الحديقة، جلس الجميع لالتقاط أنفاسهم الأخيرة قبل ركوب الحافلات. وزع المعلمون عبوات ماء وبعض الوجبات الخفيفة، فجلسنا على المقاعد الحجرية نتناولها بسرعة. رأيت ليان من بعيد، كانت ترفع القبعة قليلًا لتمسح جبينها، ثم تعود لتضحك مع من حولها وكأن التعب لم يترك فيها أثرًا.

حين حان وقت المغادرة، اصطف الطلاب وصعدوا الحافلات من جديد. جلست بجوار النافذة، أتابع بعينيّ المشهد خارجها. رأيت ليان تصعد مع زميلاتها وتجلس في الصفوف الأمامية. وضعت حقيبتها بجوارها، وأسندت رأسها إلى الزجاج وكأنها تبحث عن قسط من الراحة.

تحرّكت الحافلات ببطء، تاركة خلفها الحديقة والأشجار العالية.

كان بعض الطلاب يغنون بأصوات مرتفعة، وآخرون يلتقطون الصور

من النوافذ، بينما غلب الصمت عليّ. بقيتُ أتابع الطريق الملتف بين الحقول، وصوت المحرك الرتيب ينساب في أذني، لكن داخلي كان يحمل صورة صغيرة، بسيطة، لفتاة تعدّل قبعةً على رأسها وسط ضحكات صديقاتها.

وهكذا انتهت الرحلة، كأنها يوم عادي، لم يترك في قلوب الآخرين سوى ذكريات خفيفة، أما في داخلي فقد بقي أثر مختلف، أثر لم أكن أستطيع تسميته بعد.

حين عدت إلى البيت بعد الرحلة، كنت أشعر بثقل التعب على قدميّ، لكن داخلي كان مزدحمًا بالصور والمواقف. تناولت طعامي على عجل، ثم دخلت غرفتي الصغيرة وأغلقت الباب. كان هناك شيء واحد يشدّني أكثر من أي شيء آخر: دفتري.

سحبت الدفتر من فوق الرف، جلست إلى مكتبي الخشبي العتيق، وأمسكت قلمي كأنني أخشى أن تتبخر الذكريات إن لم أكتبها فورًا.

بدأت أدوّن تفاصيل اليوم:

كتبت عن الأشجار العالية التي كانت تظلل المدخل، عن أصوات العصافير التي رافقتنا ونحن نصعد الممر الحجري الطويل، عن المتحف الصغير الذي احتوى على لوحات ومعروضات أثارت فضولي، وعن القمة التي أدهشتني حين انكشفت أمامي القرية بأكملها، كلوحة مرسومة بعناية.

ثم كتبت عن المواقف الصغيرة: عن الزحام عند البوابة، عن صديقي الذي كاد يتعثر في الطريق وهو يضحك، وعن المعلمين الذين كانوا يصرخون لينظموا الطلاب، بينما ضحكاتنا كانت تتناثر في الهواء كأننا لا نسمع شيئًا.

لكن حين وصلت إلى الجزء الأهم... توقفت يدي قليلاً. نظرت إلى الورقة الفارغة، وترددت قبل أن أكتب. ثم بدأت الكلمات تخرج ببطء:

ليان...لم أرَ في الرحلة كلها شيئًا يلفتني مثلك...حين مررتِ قربي، تعدّلين القبعة على رأسك بيدك الصغيرة، والشمس تضيء وجهك، كنتِ أجمل من كل المناظر التي رأيناها.

تلك الغمزة الخفيفة على خدك الأيمن... كأنها سرّ صغير يخصك وحدك.

لا أعرف لماذا بقيت صورتك في ذهني أوضح من كل شيء آخر.

ربما لأنكِ ببساطة كنتِ أجمل ما في الرحلة."

توقفت بعد أن كتبت هذه السطور، قلبي يخفق كأنني اعترفت بشيء لا ينبغي أن يُقال. أغلقت الدفتر بسرعة، وأعدته إلى مكانه على الرف، ثم ألقيت بجسدي على السرير.

في الخارج، كانت أصوات الليل تتعالى: صياح ديك بعيد، حفيف الأشجار مع نسيم القرية. أغمضت عينيّ، لكن الكلمات التي كتبتها بقيت تتردّد في داخلي حتى غلبني النوم.

استيقظت في منتصف الليل على ضوء القمر المتسلل من النافذة، كانت الغرفة هادئة إلا من صوت الريح يمر بين أغصان الأشجار القريبة. جلست ببطء، أشعر بثقل في رأسي، ربما من طول التفكير قبل النوم.

نظرت إلى الطاولة بجانب السرير، فوقع بصري على الدفتر الذي كتبت فيه قبل أن أنام. مددت يدي نحوه، فتحته على الصفحة الأخيرة، وقرأت ما دوّنته الليلة الماضية. ابتسمت بخفة وأنا أتذكر الموقف، كيف بدت ليان وهي تضع القبعة، وكيف بدت ملامحها مطمئنة تحت الشمس.

لكن شيئًا في داخلي جعلني أعيد القراءة أكثر من مرة، كأنني أبحث بين السطور عن شيء لا أعرفه. لم أكن أدري لماذا أشعر أن يوم الرحلة لم يكن عاديًا، وأن تلك اللحظة القصيرة التي جمعتني

بها كانت بداية شيء أكبر، لا علاقة له بالحب، بل بالإحساس الغريب بأن الأيام المقبلة تحمل شيئًا مختلفًا.

أغلقت الدفتر، ونهضت لأفتح النافذة. تسللت نسمات الفجر الباردة، ومعها أول خيوط الضوء التي بددت عتمة الليل. نظرت إلى الطريق الممتد أمام البيت، كان خاليًا وساكنًا، لكني شعرت داخلي كأن طريقًا آخر بدأ يتفتح في حياتي، طريق لا أعرف إلى أين يقود.

جلست أراقب السماء التي بدأت تتلون بلونٍ ورديٍّ خافت، وقلت في نفسي بهدوء:

"ربما... لم تكن الرحلة مجرد نزهة بعد كل شيء."

في اليوم التالي، عدت إلى المدرسة كالمعتاد، لكن شيئًا في داخلي لم يعد كما كان. كنت أجلس في مقعدي بين الزملاء، أستمع لشرح المعلم دون أن أسمع شيئًا فعلًا. كانت أفكاري تسبح بعيدًا، تعود

بي إلى تلك الرحلة، إلى تلك النظرة العابرة، وإلى القبعة التي ما زلت أراها في خيالي كلما أغمضت عيني.

لم أفهم في البداية ما الذي تغيّر فيّ، ولم أجرؤ حتى على الاعتراف لنفسي. كنت أقول في سري إنها مجرد لحظة إعجاب عابرة، أو ربما فضول، لا أكثر. لكن الأيام التالية كانت تفضحني.

كنت أراها أحيانًا في ممرات المدرسة حين تزورنا مع والدها، أو في المناسبات العائلية القليلة، فأشعر بذلك الارتباك الصغير الذي لا أستطيع السيطرة عليه. شيء بسيط، لكنه واضح بما يكفي ليقلب يومي رأسًا على عقب.

كنت أحاول دائمًا أن أبدو طبيعيًا، أشارك الحديث، أضحك مع الجميع، لكنّ جزءًا مني كان دائمًا مشغولًا بها.

بتفاصيلها الصغيرة التي لا يلاحظها أحد سواي، بتلك الغمزة الخفيفة في خدها الأيمن حين تبتسم، بطريقة حديثها التي تمتزج

فيها الثقة بالهدوء، وحتى بصوتها حين تنادي والدتها من بعيد، كان يبدو لي كأنه موسيقى مألوفة لا يريد القلب أن ينساها.

ليالي كثيرة كنت أجلس فيها إلى نافذتي بعد أن ينام الجميع، أفتح دفتري وأكتب دون وعي. لم أكتب اسمها أبدًا، لكن كل كلمة كانت عنها. كل جملة كانت تصف شعورًا لا يقال.

كنت أضحك أحيانًا على نفسي، وأقول: "متى أصبحت أكتب بهذا الشكل؟ متى صار اسمي يرتجف مع ذكر فتاة لم تلتفت إليّ يومًا؟"

لكن في أعماقي كنت أعلم... أن شيئًا في قلبي بدأ يتحرك، وأنه مهما حاولت إخفاءه، سيظل هناك، ينتظر اللحظة التي ينكشف فيها من تلقاء نفسه.

كانت شمس المغيب تنحدر ببطء خلف الحقول، تنثر ضوءًا برتقاليًا ينساب فوق الطرق الترابية والبيوت الطينية.

كنت في طريقي إلى بائع خضروات الصغير عند طرف القرية، أحمل قائمة طويلة كتبتها أمي بخطها المرتب. الطريق كان شبه خالٍ، إلا من صوت الريح وهي تحرّك أعواد القمح اليابسة، وهدوءٍ مألوف يملأ المكان.

وبينما كنت أمشي متأملًا الغروب، لمحت من بعيد ظلًّا أنثويًا يسير في الاتجاه المقابل.

اقتربت أكثر، فتعرفت عليها فورًا... ليان.

كانت تسير بخطوات هادئة، تحمل كيسًا صغيرًا بيديها، وشعرها منسدل على كتفيها، يتمايل مع الهواء كأنّه موجة من سكون.

كانت ترتدي فستانًا بسيطًا بلون السماء بعد المطر، والقبعة التي أعطيتها لها في الرحلة الأخيرة ما زالت تزيّن رأسها.

تجمّدت في مكاني لوهلة، لا أدري لماذا.

لم تكن قد رأتني بعد، وكنت أراقبها من بعيد، دون أن أملك الشجاعة لأن أقول شيئًا.

اقتربت بخطواتها حتى صارت قريبة بما يكفي لأن أرى ملامحها بوضوح، تلك الغمزة الصغيرة في خدّها الأيمن حين تبتسم لنفسها، وكأنها تفكّر في شيء جميل.

مرّت من جواري دون أن تلتفت، أو ربما رأتني وتجاهلتني، لا أعلم. لكن تلك الثواني القليلة كانت كافية لتترك في قلبي أثرًا غريبًا، مزيجًا من دفء وارتباك، من شوقٍ لا أعرف مصدره.

تابعت السير إلى البائع، لكن خطواتي لم تعد كما كانت.

كنت أنظر حولي كمن يمشي في حلم، كل شيء بدا هادئًا أكثر من اللازم، حتى صوت الريح صار خافتًا كأنه يخشى أن يوقظ ما في داخلي.

حين عدت إلى البيت في ذلك المساء، كنت أعلم أن شيئًا ما قد بدأ يتغيّر في قلبي، دون أن أملك تفسيرًا له، ودون أن أجرؤ على الاعتراف به حتى لنفسي.

في تلك الليلة، جلست في مكتبي الخشبي الصغير، والنافذة نصف مفتوحة على عتمةٍ تتخللها نسمات باردة من الحقول.

كانت الغرفة ساكنة، إلا من صرير القلم حين بدأت أكتب شيئًا لا أعرف ما هو بالضبط.

كتبت اسمها أولًا، ثم مسحته سريعًا كمن ارتكب خطأً لا يُغتفر.

أعدت القلم إلى الورقة، وكتبت بدلًا منه:

"لم تكن مصادفة، ولا لقاءً عابرًا... كان شيئًا يشبه الرجفة الأولى في صدرٍ لم يعرف بعد معنى الخفقان."

رفعت رأسي إلى السقف، شعرت كأنني أتنفس لأول مرة منذ زمن.

شيء ما في داخلي كان يتّسع، كأن القلب نفسه يريد أن يقول ما أعجز عنه.

في اليوم التالي، في المدرسة، بدت الساعات أطول من المعتاد.

كلما دوّى الجرس، كنت أتلفّت نحو الممر كأنني أبحث عنها دون وعي.

وفي الاستراحة، رأيتها من بعيد، بين زميلاتها، تضحك بخفة وهي تمسك كتابًا صغيرًا مغطّى بالورق الأزرق.

لم أقترب، ولم أتحدث، فقط اكتفيت بالنظر.

لكن حين رفعت رأسها فجأة، والتقت عيناها بعينيّ للحظة قصيرة، أحسست أن الزمن توقف.

ثم أشاحت ببصرها بهدوء، وعادت إلى حديثها.

في تلك اللحظة أدركت أن الصمت أحيانًا أقوى من الكلام،

وأن النظرة الواحدة قادرة على إشعال آلاف الأسئلة التي لا يجيب عنها أحد.

مع مرور الأيام، صار وجودها حولي عادة لا أريد منها فكاكًا.

كنت أراها في الممر، في الساحة، حتى في أحلامي.

أحيانًا أجد في دفاتري كلمات لا أذكر أنني كتبتها:

"لو عرفتِ كم من الأشياء الصغيرة تُذكّرني بك، لآمنتِ أن الذاكرة ليست في الرأس، بل في القلب."

وفي مساء أحد الأيام، وبينما كنت أقلب صفحات دفتري،

توقفت أمام صفحة فارغة، وكتبت في أعلاها بخطٍ صغيرٍ متردد:

"إلى ليان..."

توقفت قليلاً عن الكتابة للحظة، شعرت أن الكلمات ما زالت تختبئ في صدري،

فعدت أكتب ببطء، كأنني أفرغ ما لا يُقال لأحد:

*"لا أعرف ما الذي جعلني أحببتك بهذه الطريقة، لكنّي أصابني حبك في داخلي، ولا أعرف كيف أزيله، ولا أريد أن أزيله، لأنه أجمل شعورٍ عرفه قلبي يومًا.

حتى لو لم تعرفي يومًا أنني أحبك، سأظل أحبك في صمت، سأحبك كما الآن، دون انتظار مقابل، دون وعدٍ أو لقاء.

لا تهمّني صلة القرابة بيننا، ولا يهمّني رأي الناس فيكِ،فحبّي لكِ طغى على كلامهم، وعلى كلّ ما يُقال عنّا.

ربما لن تقرئي هذه الكلمات أبدًا، لكن يكفيني أنني كتبتها، لأعترف لنفسي قبل أي أحد،أنّ قلبي اختاركِ من بين الجميع، ولن يتراجع.

أبعدت القلم عن الورقة، ونظرت إلى السطور طويلًا.

كانت الكلمات بسيطة، لكنها أثقل من أن تُقال بصوتٍ مسموع.

شعرت كأنني أتنفس بعد انتظارٍ طويل، وكأن الحروف حملت عني شيئًا لا يُحتمل.

أغلقت الدفتر ببطء، وضعته على الرفّ بجانب كتبي، وجلست صامتًا أنظر إلى النافذة.

في الخارج كان القمر يعلو فوق الحقول، يسكب نوره على الطرق الهادئة.

* * *

مرّت السنوات ببطء، كما تمرّ الفصول على شجرةٍ لا تفقد لونها، لكنها تغيّر ملامحها في صمت.

تخرّجنا من الثانوية، وكلّ واحدٍ منّا سلك طريقًا مختلفًا.

لم أعد أرى ليان كثيرًا، سوى مصادفات عابرة في الأعراس أو في زيارات العائلة، كانت تبتسم كعادتها، تلك الابتسامة التي تشبه

الضوء حين يمرّ بين الغيوم، ثم تمضي بخفّة، تاركةً في قلبي صدىً لا يزول.

أما أنا، فقد مضيت في حياتي ، أحمل معي دفتري القديم، كأنه جزء منّي لا يفارقني.

لم أفتحه كثيرًا، لكنّي كنت أشعر أن بين صفحاته حياةً أخرى تنتظرني كلما ضاق بي الواقع.

كانت الليالي تمرّ متشابهة، والمدينة من حولي مزدحمة وصامتة في الوقت نفسه، حتى جاء ذلك اليوم، يوم التخرج من الثانوية.

حين تسلّمت شهادتي بين الزحام والتصفيق، لم أشعر بالفخر كما ظننت، بعد ان رأيت نفسي أنني سوف اعيد سنة من جديد، بعدها تركت شيئًا خلفي لم يكتمل بعد.

مرّت الشهور سريعًا بعد نهاية الثانوية، كأن الأيام كانت تركض وأنا ما زلت في مكاني.

تقدّم الجميع بخطوات ثابتة نحو أحلامهم، بينما أنا كنت أتخبط بين ما أريد وما لا أستطيع.

في تلك السنة، لم أوفَّق في دراستي، وسقطت عامًا كاملًا.

لم يكن الأمر بسبب صعوبة المواد فقط، بل لأن قلبي كان مشغولًا بشيء آخر تمامًا... بها.

كنت أحاول التركيز، لكن كلما جلست أمام الكتب، رأيت وجهها بين السطور.

كلما بدأت أكتب، تذكّرت رسالتي القديمة، كأن الحروف ترفض أن تنتمي لشيء غيرها.

كنت أضحك أحيانًا على نفسي، وأقول:

ـ هل يمكن لحبٍ صامت أن يُربك حياة كاملة؟

لكنني كنت أعلم أن الجواب واضح في داخلي.

سمعت عمي يتفاخر بإنجازات أطفاله كان يقصد ليان لأنها التحقت بكلية الهندسة في المدينة آخري.

حين عرفت ذلك، سكتُّ طويلًا، ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة لا أدري معناها.

ربما لأنني كنت فخورًا بها، أو لأن عمي كان يسخر من والدي بسبب تفوّق ابنته التي في عمري، إذ نجحت هي ولم أنجح أنا.

وربما لأن شيئًا في داخلي قال إن الطريق بيننا صار أطول من قبل.

كنت أراها أحيانًا مصادفة في الحافلات أو في المكتبة العامة، تمسك كتبها وتبدو منشغلة بعالمها، بثقةٍ تجعلها تبدو كأنها تنتمي إلى مستقبلٍ لم أصل إليه بعد.

كنت أمرّ بجانبها بصمت، أتمتم في نفسي:

"حتى لو لم تعرف يومًا أني أحببتها، سأظل أحبها كما هي، كما كانت دائمًا."

ومع مرور الأيام، بدأتُ أعمل بجدٍّ أكبر لألحق بما فاتني.

لم يكن هدفي فقط أن أنجح في الدراسة، بل أن أستعيد نفسي التي ضيّعتها بين الحروف والذكريات.

لكنها كانت دائمًا هناك في الخلفية، كصوتٍ هادئ لا يغيب مهما علت ضوضاء الحياة.

في إحدى الليالي، وبينما كنت أراجع دروسي استعدادًا للامتحان، فتحت دفتري القديم بلا قصد، فوقعت عيناي على تلك الصفحة التي كتبتها قبل أعوام.

ابتسمت دون وعي، وقلت في نفسي:

"ربما القدر لا يُخطئ المواعيد، بل ينتظر الوقت المناسب ليجمع ما فرّقته الأيام."

كانت الساعة تجاوزت منتصف الليل، والغرفة غارقة في سكونٍ ثقيل، لا يسمع فيها سوى أنفاسي المتقطعة.

لم أعد أكتب في دفتري كما كنت من قبل، ربما لأنني سئمت من

الكتابة ،أو لأن الحروف باتت عاجزة عن إخراج ما في صدري.

أصبحت أقضي أغلب وقتي ممسكًا بهاتفي، أتصفّح المواقع، أقرأ

ما يكتبه الناس، وأبحث بين آلاف الكلمات عن شيء

يشبهني...لكنني لا أجد شيئًا.

في تلك الليلة، جلست أحدّق في الشاشة طويلاً،لا أدري ما الذي

كنت أريده بالضبط، كلّ ما في داخلي كان صامتًا، لكنه ثقيل.

فتحت خانة الكتابة، وتركت أصابعي تكتب دون تفكير، كأن قلبي

هو من يمسك القلم هذه المرة.

كتبت:

"غريبٌ كيف يمكن لغيابِ شخصٍ واحد أن يجعل كلَّ شيءٍ في

الحياة ناقصًا،

حتى الضوء... حتى نفسك."

تأملت الكلمات للحظة، ثم ضغطت زر النشر.

لم أكن أتوقّع أن يتغيّر شيء،لكنّ شعورًا خفيفًا بالراحة تسلّل إلى صدري، كأنني أخيرًا قلت ما كنت أخفيه منذ زمن.

ظللت أحدّق في الشاشة، أتابع التغريدة الصغيرة وهي تختفي بين ملايين الكلمات، كأنها نجمةٌ سقطت من سماءٍ مزدحمةٍ بالنسيان.

وضعت الهاتف بجانبي واستلقيت على السرير، أتأمل السقف المظلم بينما عينيّ تبحثان عنها.

رأيت ابتسامتها كما كانت، والقبعة التي أهديتها لها يوم الرحلة، ورأيت نفسي كما كنت حينها... فتىً بسيطًا يحب بصمتٍ لا يسمعه أحد.

همست لنفسي قبل أن أغفو:

"حتى وإن لم تعلم يومًا أنني أحببتها،سأظل أحبها بطريقتي، في صمتي،

إلى أن يشاء القدر أن يسمع صوتي."

استيقظت في صباح اليوم التالي متأخرًا قليلًا، والشمس تتسلّل من النافذة بخيوطٍ خفيفةٍ تلامس وجهي. كان رأسي مثقلًا من قلّة النوم، وعقلي ما زال يدور حول ما كتبت الليلة الماضية. شعرت أنني تركت شيئًا منّي بين تلك الكلمات، وكأن التغريدة لم تكن مجرّد حروف، بل اعتراف لم يسمعه أحد.

قضيت نهاري بين المذاكرة والشرود، إلى أن حلّ المساء. جلست في غرفة الجلوس أساعد أختي الصغيرة في تثبيت أحد التطبيقات على هاتفها الجديد، وكنت أتصفّح الإعدادات بسرعة حين توقّف بصري فجأة عند اسم مألوف... "ليان".

لم أدرِ كيف تجمّدت يدي في مكانها. للحظةٍ واحدةٍ، عاد قلبي يخفق كما كان يفعل في الماضي، بنفس السرعة والدفء والخوف. نظرت إلى الاسم طويلًا، وابتسامة صغيرة سرت على

وجهي دون وعي. تردّدت كثيرًا، ثم انتقلت بخفةٍ إلى قائمة الأرقام ونسخت الرقم إلى هاتفي دون أن تشعر أختي بشيء. كانت تلك المرة الأولى التي أفعل فيها أمرًا كهذا، لكنّ قلبي لم يتركني أفكّر.

حين دخلت غرفتي تلك الليلة، جلست على طرف السرير أحدّق في الشاشة الصامتة بين يدي. رقمها أمامي، لكنّ يدي كانت ترتجف كأنّها تمسك بذكرى حيّة. ظللت مترددًا لدقائق طويلة، ثم فتحت أحد تطبيقات المحادثة وكتبت الرقم في خانة البحث. لم تمضِ لحظات حتى ظهر اسمها وصورتها الصغيرة، وملامحها التي لم تتغيّر. كانت هي نفسها... كما لو أنّ الزمن توقف عند تلك الرحلة. تنفّست بعمق، وشعرت بحرارةٍ تسري في صدري. كتبت بخطٍ متردّدٍ أولى كلماتي بعد كل تلك السنين:

"مساء الخير...

أعلم أنه لا يجوز أن نتحدث هنا، لكن صدري ضاق، وأصبحتُ مشتتًا في كل شيء بسبب خيالي الذي لا يفارقك. لا أعلم إن كان من الصواب أن أخبرك بهذا عبر الهاتف أم لا، لكني معجب بك... بل أحبك.

أحببتك منذ تلك السنة الأخيرة، وأعلم أيضًا أنك لا تبادلينني الشعور نفسه، لكنني أؤمن أن الزمن قد يحمل لي لحظة يكون لكِ فيها شعور نحوي... وأرجو ذلك."

أرسلت الرسالة، وبقيت أحدّق فيها طويلًا كأنّها نافذةٌ مفتوحةٌ على الماضي. مضت دقائق لم أسمع فيها سوى دقات قلبي.

وفجأة، ظهر إشعار القراءة، لكنها لم تكتب شيئًا.

أغلقت الهاتف ببطءٍ وألقيت نفسي على السرير، أتأمل سقف الغرفة كما لو كنت أبحث عن إجابةٍ بين ظلاله. شعرت بخيبةٍ هادئةٍ تلتهمني من الداخل، لكنّ ابتسامةً صغيرة زارت وجهي. لم يكن

صمتها مؤلمًا بقدر ما كان دافئًا، كأنها قالت كل شيء دون أن تنطق.

أغمضت عينيّ، وهمست لنفسي:

"ربما الصمت أحيانًا هو الردّ الذي لا يُنسى."

مضت ساعاتٌ طويلة بعد أن أرسلت رسالتي، والليل يزداد صمتًا مع كل دقيقة. كنت أحدّق في الهاتف كأنني أترقّب نبضه، أعدّ الثواني بين كل إشعارٍ يمرّ على الشاشة، أملاً أن يكون منها. لكن لا شيء جاء. ومع مرور الوقت، غلبني النعاس وأنا ممسكٌ بهاتفي، يضيء وجهًا أنهكه الانتظار.

في الصباح، استيقظت على صوت الإشعارات، فمددت يدي ببطء، وما إن رأيت اسمها على الشاشة حتى تسارعت أنفاسي، وكأنّ قلبي استيقظ قبلي. فتحت الرسالة بلهفةٍ خجولة، وقرأت كلماتها القصيرة، تلك التي جعلت العالم من حولي يختفي في لحظة:

"مرحبًا آسر، لا أريد أن أجعلك تحزن بسببي، ولكنك تعلم أنني في سنتي الأخيرة من الدراسة، وليس لديّ وقت حتى لنفسي. لا أريد أن أعلّق قلبك بي بردّي، وأنت تعرف أن والدينا إن علما بالأمر فستحدث مشكلة كبيرة، ثم إن ذلك محرّم في شريعتنا. أعتذر منك، لا يمكنني أن أبادلك نفس الشعور."

بقيت أحدّق في الرسالة طويلًا، كأن الكلمات خرجت من الشاشة لتصيب قلبي مباشرة. لم تكن قاسية، لكنها كانت باردة... بقدرٍ يكفي لإخماد كلّ ما أشعلته السنوات من حنين. أعدت قراءتها أكثر من مرة، أبحث بين الحروف عن تردّدٍ صغير أو بقايا دفءٍ ضاع في الطريق، لكنني لم أجد سوى الحسم والاعتذار.

كتبت لها بعدها، بصوتٍ يشبه الرجاء أكثر من أي شيء آخر:

ـ ليان... لا أطلب منكِ شيئًا، ولا أريد أن أؤذيكِ أو أُثقل عليكِ، فقط اسمحي لي أن أطمئن قلبي عليكِ من حينٍ لآخر، هذا كلّ ما أريده.

تأخرت بالردّ، وظننت أنها لن تفعل، حتى وصلني منها بعد ساعاتٍ طويلة:

ـ كما تشاء يا آسر... وإن أردت أن تطمئن عليّ كل يوم، فلا بأس.

ابتسمت بخفوتٍ وأنا أقرأ كلماتها، كأن الأمل الذي مات قبل قليل عاد يتنفّس من جديد. منذ ذلك اليوم، أصبحت أرسل لها رسالة كلّ مساء، أحيانًا أكتب فيها جملة قصيرة، وأحيانًا أكتفي بسؤالٍ بسيط: كيف كان يومكِ؟

كانت تقرأ الرسائل دائمًا، لكنّ ردودها لم تكن تأتي سريعًا كما أتمنى. أحيانًا تمرّ ساعات طويلة، وأحيانًا يومٌ كامل قبل أن يظهر إشعار الردّ. كنت أبتسم كلّ مرة أرى إشعار قراءتها، ثم أضم الهاتف إلى صدري كأنني أحتضن أثرها البعيد.

ومع مرور الأيام، بدأ صمتها يطول أكثر. لم تعد تردّ كما كانت، وأصبحت رسائلها تقتصر على كلماتٍ مقتضبة لا تحمل دفئًا ولا اهتمامًا. حاولت أن أقنع نفسي بأنها مشغولة، لكنها كانت تبتعد ببطءٍ مؤلم، كمن يُغلق الباب بهدوءٍ دون أن يلتفت.

وذات مساء، أمسكت هاتفي كالعادة، فتحت نافذة المحادثة، نظرت إلى آخر رسالة أرسلتها ولم يُردّ عليها منذ ثلاثة أيام، ثم أغلقت التطبيق ببطء. لم أشعر بالغضب هذه المرة، فقط شعرت بثقلٍ في صدري كأن شيئًا انتهى دون وداع.

همست لنفسي بصوتٍ مبحوح:

"ربما كانت تحاول ألّا تؤذيني... لكنها لم تعلم أن الصمت أحيانًا أكثر قسوةً من الرفض."

ثم وضعت الهاتف بجانبي، وأغمضت عينيّ، وفي داخلي كان الصدى يهمس:

"أحيانًا، لا نبحث عن الشخص نفسه، بل عن الإحساس الذي كنا نشعر به بجانبه."

منذ ابتعاد ليان، تغيّر كلّ شيء في أيامي، إلا شيء واحد... التفكير بها.

كنت أظنّ أن الانشغال سيُنسي القلب ما أحبّ، لكنّي اكتشفت أن بعض الوجوه تظلّ حاضرةً فيك، حتى وإن غابت عن العالم كلّه.

مرّت الأسابيع ببطءٍ، وأنا أحاول أن أعيش كما يعيش الناس،أخرج إلى عملي، أبتسم، أتحدّث، لكنّ ليان كانت في كلّ شيءٍ من حولي.

في صمت الصباح حين أخرج إلى الطريق،في صوت المطر حين يطرق زجاج النافذة،وفي رائحة القهوة التي كانت تحبّها.

التحقت بالعمل في محطة للخرسانة بعد تخرّجي من الثانوية، كان العمل قاسيًا ومتعبًا، والضجيج لا يهدأ، لكنّني وجدت في ذلك الضجيج ملاذًا من صمتي.

كنت أقف ساعاتٍ طويلة أمام الآلات الضخمة وهي تمزج الرمل والماء والإسمنت، وأتأمل كيف يتحوّل الخليط إلى كتلةٍ صلبةٍ لا تنكسر بسهولة،

وأقول في نفسي:

"ليت القلوب تُصبّ مثل الخرسانة، فلا يتسرّب منها الوجع بعد التجمّد."

كان زملائي يتحدثون كثيرًا، يضحكون، يخططون لمستقبلهم، أما أنا فكنت أعيش بين صوت الماكينات وأفكاري التي لا تنتهي.

كلّما وضعت خوذتي وبدأت العمل، رأيتها في خيالي بوجهها الهادئ، وشعرت وكأنّها تمرّ بين العمال، تبتسم لي من بعيد ثم تختفي بين الغبار والضوء.

في الليل، كنت أعود إلى غرفتي مرهقًا، أجلس قرب النافذة، أفتح هاتفي، أنظر إلى آخر رسالةٍ بيننا، ثم أبتسم بخفوتٍ كأنّني أكلّمها بصمتي.

لم أجرؤ على إرسال شيءٍ جديد، لكنّني كنت أكتب لها كثيرًا في خيالي، أحاديث طويلة لا يسمعها أحد سواي.

ومع مرور الأيام، بدأت أشعر أنّ حبّي لها لم يمت، بل تغيّر شكله؛ لم يعد وجعًا حادًا كما كان، بل أصبح جزءًا منّي، كظلٍّ لا يفارق صاحبه مهما تغيّرت الأماكن.

كنت أعلم أنّها تتابع حياتها في طريقٍ آخر، وربما لم تعد تذكرني، لكنّ قلبي كان يصرّ على أن يراها في كلّ شيءٍ جميلٍ يمرّ بي.

وحين كنت أضع خوذتي كل صباح وأتجه إلى عملي بين الغبار والحديد، كنت أهمس لنفسي بابتسامةٍ متعبة:

"لا تحبّيني، وأنا سأحبّك رغم تجاهلك لي... ولكن سيأتي يومٌ،

وستحبّينني كما أحببتك."

في إحدى الليالي، كانت ليلةٌ ساكنة بعد يومٍ طويلٍ في محطة

الخرسانة.

العمال غادروا، وصمت الماكينات ترك خلفه طنينًا خفيفًا يعلّق في

الأذن كأنه لا يريد الرحيل.

جلست على مقعدٍ خشبيٍّ قرب السور، أراقب الضوء الأصفر

الضعيف وهو يختلط بغبار المساء.

لم أكن أفكر في شيء، لكنني كنت أشعر أن الليل في هذه

المحطة مختلف، أكثر ثِقلاً من أي مكانٍ آخر.

وحين هممت بالمغادرة، لمحت شيئًا عند طرف الجدار،

دفترًا قديماً مبلل الأطراف، مغطّى ببقعٍ من الأسمنت اليابس.

انحنيت والتقطته. كان الغلاف باهت اللون،

وعليه كتابة بالكاد تُقرأ: "يوميّاتي."

جلست قرب المصباح الصغير، فتحته بهدوء، وقرأت السطر الأول:

"الليل هنا لا يشبه ليل الخارج... الصوت لا يتوقف حتى بعد أن نصمت جميعًا."

توقفت قليلًا، شعرت أن الجملة تحمل أكثر مما تقوله.

رفعت رأسي ونظرت حولي،

كل شيء كان هادئًا كما لو أن العالم توقف،

لكن الكلمات بقيت تدور في رأسي كصدى لا يريد أن يغيب.

أغلقت الدفتر لوهلة، ثم فتحته من جديد بفضولٍ لا أعرف مصدره.

قلّبت بعض الصفحات، وإذا بي أجد رسوماتٍ بقلمٍ أسود باهت،

كانت خطوطها دقيقة وواثقة، تُظهر المحطة نفسها من زوايا مختلفة.

رسمٌ لخلاطةٍ ضخمةٍ وسط الغبار، وآخر لظلّ عاملٍ يقف بجانبها، ملامحه غير واضحة،ورسمٌ ثالث لأكوام الرمل، والرافعة المائلة، حتى الضوء المتسرّب من المصابيح كان مرسومًا بخطوطٍ مرتجفةٍ كأنها تتنفس.

لم تكن الرسومات جميلة فحسب، بل كانت واقعية إلى حدٍّ جعلني أشعر وكأنّني أنظر من نافذةٍ داخل زمنٍ آخر.

لم يكن الفنان يرسم ما يراه بعينيه، بل ما يشعر به... وكأنه كان يحاول أن يقول شيئًا ولم يجد للكلمات طريقًا.

مررت بأصابعي فوق إحدى الصفحات، فشعرت بملمسٍ خفيفٍ لبقايا الغبار العالق عليها، كأنها تحمل أثر يدٍ أنهكها العمل، وتركها الزمان هنا لتشهد وحدتها.

في تلك اللحظة، أحسست أن الدفتر لم يعد شيئًا غريبًا وجدته صدفة، بل صار جزءًا من المكان... من الخرسانة، من الأصوات، من كلّ ما كنت أظنه عاديًا.

أغلقت الدفتر ببطء، وضممته إلى صدري، ثم نظرت نحو المحطة الغارقة في الظلام،وهمست لنفسي:

"كم من الأرواح مرّت من هنا... ولم يذكرها أحد."

بعد تلك الليلة، لم يفارقني الدفتر.

كنت أضعه في حقيبتي كل صباح، وأفتحه أحيانًا في استراحة العمل، أقلب صفحاته ببطءٍ كمن يتصفح ذاكرة ليست له.

الغريب أنّي بدأت أرى كل زاويةٍ في المحطة وكأنني رأيتها من قبل، حتى الجدار المتشقق قرب الخلاطة، يشبه تمامًا ما كان في إحدى الرسومات، نفس الانحناءة، نفس الظلّ المائل.

في البداية ظننتها صدفة، لكنّ الصدف تكرّرت أكثر مما يجب.

الدرج المكسور عند باب المخزن، والضوء الذي ينعكس مساءً على سطح المياه الراكدة خلف السور، كلّها كانت هناك، مرسومة بخطوطٍ دقيقةٍ كأنّها عين أخرى كانت ترى قبلي.

كنت أعمل بين الماكينات، لكن عقلي ظلّ في تلك الصفحات، أتساءل من كان صاحبها؟ ومتى رسمها؟

ولماذا شعرتُ وكأنّه لم يرحل تمامًا عن هذا المكان؟

وفي إحدى الليالي، حين خيّم الصمت وهدأت كل الأصوات، جلست في الزاوية ذاتها التي وجدت فيها الدفتر، وفتحته من جديد،وقلت في نفسي:

"ربما بعض الأشياء لا تُترك عبثًا...ربما تختار من يجدها حين يحين الوقت."

تلك الليلة لم تكن كغيرها،كانت المحطة ساكنة على نحوٍ غريب، الهواء بالكاد يتحرك، وصوت الماكينات الذي يملأ المكان نهارًا اختفى تمامًا، حتى كأن الأرض نفسها تنصت لشيءٍ خفي.

جلست في الزاوية التي وجدت فيها الدفتر أول مرة، أمامي المصباح الصغير يترنّح ضوؤه بفعل الرياح الخفيفة، وفي يدي الدفتر، أوراقه المائلة إلى الصفرة تفوح منها رائحة قديمة، رائحة الغبار والعرق والذكريات.

فتحت الصفحة التي توقفت عندها، كانت شبه فارغة إلا من سطرٍ خافت بالكاد يُرى.

مددت رأسي قليلًا لأقرأ، لكنّ الضوء كان ضعيفًا، فاقتربت أكثر حتى لامست الورقة بأطراف أصابعي.

فجأة، سمعت همسًا يأتي من جهةٍ لا أستطيع تحديدها، صوتًا هادئًا، قريبًا، كأنه يمرّ بين الهواء نفسه:

ـ هذا دفتري... هل أعجبك؟

تصلبت يداي في مكاني، نظرت من حولي، المكان كما هو، لا أحد هناك، الظلال ساكنة، والمصباح يترنّح ببطءٍ كأن شيئًا مرّ بجانبه للتو.

مرّت لحظاتٌ طويلة لم أتحرك فيها، حتى عاد الصوت نفسه، بنبرةٍ أكثر سكونًا ،واطمئنانًا هذه المرة:

ـ لا تخف... لن أؤذيك.

تسارعت أنفاسي دون أن ألاحظ، لم يكن الصوت مخيفًا، بل أقرب إلى صوتٍ يعرفني، كأنه خرج من داخل رأسي، أو من داخل الدفتر نفسه.

نظرت إلى الأوراق من جديد، فلاحظت أن الصفحة التي كانت شبه فارغة قبل قليل، أصبحت الآن تحتوي على خطوطٍ خفيفةٍ، كأنها بدأت ترتسم ببطء.

ظننت للحظة أن الضوء يخدعني، لكن الخطوط كانت واضحة بما يكفي لأشعر أنها تتحرك، كأنّ أحدهم يرسم الآن... من مكانٍ لا أراه.

أغلقت الدفتر بسرعة، وضممته إلى صدري بقوة، ثم رفعت رأسي نحو السماء، القمر كان مكتملًا، ضوءه يسقط على المحطة فينعكس فوق الأسمنت والحديد كوميضٍ باهت.

جلست طويلًا دون أن أتحرك، أستمع إلى الصمت الذي صار له طنين خفيف،كأنه يحتفظ بصدى صوتٍ ما زال قريبًا، صوتٍ قال لي قبل قليل إن الدفتر له... وإنه لا يريد أذيتي.

وحين قمت أخيرًا وعدت إلى غرفتي، كنت أشعر أن الدفتر أصبح أثقل مما كان، وكأن ما بداخله لا يُكتب بالحبر وحده، بل بشيءٍ من الليل نفسه.

في الصباح، استيقظت على ضوءٍ باهتٍ يتسلل من النافذة الصغيرة.

كان الهواء دافئًا، يختلط فيه صوت الماكينات البعيدة مع صياح العمال في الخارج.

لم أكن أشعر أنني نمت فعلًا، بل كأنّ الليل ما زال ممتدًا داخل رأسي، يهمس بما سمعته أمس.

مددت يدي إلى الحقيبة الموضوعة بجانب السرير، أخرجت الدفتر، نظرت إلى غلافه للحظة، ثم فتحته على الصفحة التي أغلقتها قبل أن أنام.

تجمدت أنفاسي.

كانت هناك رسمة جديدة، بخطوطٍ دقيقةٍ وواضحةٍ أكثر من أي مرةٍ سابقة.

الرسم يُظهرني جالسًا على المقعد الخشبي نفسه في ساحة المحطة، ليلاً، وبجانبي شخص آخر.

لم أحتج إلى النظر كثيرًا لأعرف أن المكان هو نفسه الذي جلست فيه الليلة الماضية،لكنّ وجه الرجل المرسوم بجانبي كان غريبًا، لم يكن له ملامح على الإطلاق، مجرد ظلٍّ لرأسٍ وجسد، كأنّ الرسام توقّف عند اللحظة التي تبدأ فيها الملامح بالظهور، ثم تركها ناقصة عمدًا.

ظللت أحدّق في الورقة طويلًا،عيناي تتنقلان بين ظلي وظلّه، بين الخطوط السوداء والفراغ الأبيض الذي يفصل بيننا.

للحظةٍ خُيّل إليّ أن الرسم يتنفّس، أن ذلك الظلّ ينظر إليّ رغم خلوّ وجهه من أيّ شيء.

أغلقت الصفحة سريعًا، لكن صورة الرجل بقيت في ذهني، كأنها انطبعت في صدري لا في الورق.

قضيت اليوم كله في العمل، لكن ذهني ظلّ هناك، عند الدفتر، وعند ذلك الجالس بجانبي في الرسم.

وفي المساء، حين عدت إلى غرفتي، جلست قرب النافذة ، وضوء القمر ينساب على الدفتر المغلق أمامي، كنت أشعر أنه ينتظر أن ألمسه من جديد، ينتظر أن أرى الصفحة التالية...وأنا، رغم كلّ ما في قلبي من خوفٍ هادئ،كنت أنتظرها أيضًا.

مرّت أيام، ثم أسابيع، وأنا أتجنب تلك الزاوية في آخر المحطة.

لم أعد أجلس هناك بعد انتهاء العمل، ولم أقترب من السور الذي وجدت عنده الدفتر.

كنت أمرّ بالقرب أحيانًا، لكن قدمي تبطئان دون إرادتي، كأن الهواء في تلك الجهة أثقل من سواه.

كنت أفتعل الانشغال بأي شيء:

أتحدث مع زملائي أكثر من المعتاد، أساعد في تنظيف الماكينات، أراقب الشاحنات وهي تدخل وتخرج بلا نهاية.

كل شيء فقط لأُبقي نفسي بعيدة عن ذلك المكان، عن المقعد الخشبي، وعن المصباح المائل الذي لم يزل يتدلّى هناك كعينٍ لا تنام.

أما الدفتر... فلم أفتحه منذ تلك الليلة.

تركته في الحقيبة، لكنه لم يتركني.

كنت أشعر به كلما لمست الحقيبة أو حملتها، كأن الورق بداخله يتنفس ببطء، ينتظر أن أعود إليه.

وفي كل مساء، حين أعود إلى غرفتي،أجلس قرب النافذة أراقب القمر،أتظاهر بأنني لا أفكر بشيء، لكنّ ذهني يعود إلى الصفحة الأخيرة، إلى الظلّ الذي بلا ملامح، إلى سؤالي الذي لم أجرؤ على طرحه بصوتٍ عالٍ:

ـ من كان يجلس بجانبي في تلك الرسمة؟

حتى في نومي، كان المكان يعود إليّ، أراه في أحلامٍ متقطعة، الضوء الأصفر الخافت، الغبار المتصاعد من الأرض، والدفتر موضوعٌ على المقعد ينتظرني كما كان أول مرة.

كنت أستيقظ متعرّقًا، أحاول إقناع نفسي أنني نسيت، لكن الحقيقة أنني لم أنسَ.

مرت ليالٍ كثيرة وأنا أحاول تجاهل الدفتر، أراه كل يوم في زاوية الغرفة، وأقنع نفسي أن تركه مغلقًا هو الطريقة الوحيدة للنسيان.

لكن في تلك الليلة، كان هناك شيء مختلف.

حين عدت من عملي، رأيت الحقيبة مفتوحة، والدفتر موضوعًا فوقها كما لو أن أحدًا أخرجه بيديّ حانيتين ووضعه بعناية.

ترددت للحظة، ثم اقتربت ببطء، تسارعت أنفاسي دون أن أدري لماذا.

كانت الصفحات مفتوحة من تلقاء نفسها، والضوء المنبعث من المصباح الصغير كان ينعكس فوق الكلمات المكتوبة بخطٍّ جديد، خطٍّ لم أره من قبل، أغمق لونًا، وأكثر وضوحًا من أي سطرٍ سابق.

قرأت ببطءٍ، كلمةً كلمة، كأنني أخشى أن أنطقها بصوتٍ يسمعني من كتبها:

"أين أنت؟

إنّي لا أراك في ذلك المكان.

انتظرتك طويلًا، ولم تأتِ.

لا تخف مني، أخبرتك أنّي لن أؤذيك.

روحي طيّبة، ولستُ ممّن يؤذون.

فقط أحبّ أن أراك تقرأ... أن تبقى قريبًا."

رفعت عينيّ عن الصفحة، حدّقت في الورق طويلًا، ثم نظرت نحو الباب المغلق، لم أسمع صوتًا، لكن قلبي كان يخفق كمن سمع شيئًا لا يُقال.

مددت يدي ولمست الكلمات بأطراف أصابعي، كانت الحروف جافّة، كأنها كُتبت منذ لحظات فقط.

لم أعرف إن كان عليّ أن أُغلق الدفتر أم أجيب، لكن شيئًا في داخلي جعلني أُبقيه مفتوحًا، كأنّ بيني وبينه حديثًا لم يكتمل بعد.

جلست على الكرسي الخشبي قرب النافذة، والليل في الخارج صامت، فكّرت للحظة كم يبدو غريبًا أن يخاطبك الورق.

في اليوم التالي، استيقظت مبكرًا على غير العادة.

لم يكن في رأسي إلا فكرة واحدة، تتكرر بإصرارٍ كأنها أمرٌ لا يمكن تجاهله:

ـ عليّ أن أعود إلى هناك... إلى السور.

لم أتناول إفطاري، ارتديت خوذتي، وخرجت قبل وصول باقي العمال.

كانت المحطة ما تزال هادئة، السماء رمادية كأنها لم تستيقظ بعد، والهواء يحمل رائحة الغبار والحديد البارد.

سرت ببطء نحو الزاوية التي تركتها منذ أسابيع، كل خطوةٍ كانت تذكّرني بتلك الليلة الأولى، حين وجدت الدفتر مبللًا عند الجدار نفسه.

كل شيء بدا كما تركته، المقعد الخشبي المهترئ، المصباح المائل الذي ما زال يتدلّى بخيطٍ صدئ، والظلّ الكثيف للسور الممتدّ على الأرض.

توقفت في مكاني، أنظر حولي.

لم يكن هناك أحد، لكن شعورًا مألوفًا عاد يتسلل إلى صدري، ذلك الثقل الخفيف في الهواء، كأن المكان يتذكرني.

اقتربت أكثر، مددت يدي ولمست الجدار براحتي، كان بارداً كأنّه

يحتفظ ببرودة الليل رغم حرارة النهار.

ثم جلست على المقعد ببطء، نظرت إلى الموضع الذي وجدت فيه

الدفتر أول مرة، فلم أجد شيئًا سوى بعض آثار الإسمنت القديم، لكن

عينيّ ظلت معلّقتين بذلك المكان الخالي، كأنني أراه رغم غيابه.

أخرجت الدفتر من الحقيبة، وفتحته على الصفحة الأخيرة التي

قرأتها البارحة.

كانت الكلمات كما هي، لكن أسفلها ظهر سطرٌ جديد، بخطٍّ أدقّ

وأهدأ:

"شكراً لأنك عدت."

شعرت بارتجافةٍ خفيفةٍ في أصابعي، نظرت حولي من جديد، الهواء

ساكن، الغبار لم يتحرك، لكنّ شيئًا في الأفق تغيّر، كأنّ المحطة

تتنفّس معي.

أغلقت الدفتر ببطء، وضممته إلى صدري، ثم همست دون وعي:

"لقد عدت... ولكن لا أعلم إلى من."

بقيت جالسًا أمام السور، الدفتر بين يديّ، وكلمة "شكرًا لأنك عدت" ما زالت أمامي، كأنها تُقال لي بصوتٍ لا يُسمع، صوتٍ يخرج من الورق لا من الهواء.

قلبت الصفحة ببطء، كانت بيضاء تقريبًا، إلا من جملةٍ كُتبت بخطٍّ واضحٍ هادئٍ في منتصفها:

ـ أعلم أنك خفت من صوتي تلك الليلة، لذلك سأحدثك من الآن عبر الكتابة فقط.

لا أريد إخافتك، روحي طيّبة، وأنا فقط أحبّ أن أراك تقرأ...أن أشعر أنني لست وحدي.

تسارعت أنفاسي قليلًا، لكن لم يكن الخوف كما في المرات السابقة، بل شعور غامض، مزيج من الدهشة والسكينة، كأن الكلمات نفسها تحمل طمأنينة غريبة.

رفعت نظري عن الصفحة، نظرت حولي، كان المكان ساكنًا كما هو دائمًا، لكن بدا لي أن الهواء أصبح أثقل قليلًا، كأنّ شيئًا ما في الأجواء ينتظر ردي.

أغلقت الدفتر ببطء، وتركته على ركبتي، ثم همست دون أن أشعر:

ـ إن كنت تتحدث بالكتابة، فربما عليّ أن أتعلم كيف أجيب بالطريقة نفسها."

بقيت هكذا لدقائق، صامتًا، أستمع لصوت الريح بين الجدران، وأتساءل في داخلي إن كان الدفتر يسمعني فعلًا، أم أني بدأت أسمع ما لم يعد أحدٌ سواي يسمعه.

في تلك الليلة، جلست أمام النافذة، والدفتر أمامي مفتوح على صفحةٍ بيضاء.

أمسكت القلم بين أصابعي، وترددت قليلًا قبل أن أكتب.

لم أعرف ماذا أقول ولا من أين أبدأ، لكنني في النهاية كتبت بخطٍّ خافتٍ متردّد:

ـ من أنت؟ ولماذا تكتب لي؟

سكتُّ للحظة، أحدّق في الكلمات الصغيرة، ثم أغمضت عينيّ وأخذت نفسًا عميقًا.

كانت الريح تمرّ خارج النافذة بصوتٍ خفيفٍ يشبه الهمس، وفجأة، شعرت بنسمةٍ باردةٍ تمرّ فوق يدي، كأن الهواء نفسه أراد أن يوقفني.

ارتجف القلم بين أصابعي، والدفتر أمامي تحرّكت صفحاته ببطءٍ، كأنّ نسمة الليل قرّرت أن تجيبني بدلاً منه.

توقّفت الصفحة عند سطرٍ جديدٍ لم أكتبه، يظهر حبره شيئًا فشيئًا، كما لو أن يدًا غير مرئية تخطّه الآن.

قرأت بتمعّنٍ وأنا أشعر بقلبٍ يطرق صدري:

ـ تحدّث أنت بصوتك، وسأسمعك... وأنا سأكتب لك فقط، لأنك تخاف من صوتي.

تجمّدت مكاني، أنظر إلى الجملة التي ما زال حبرها طريًا، أحسست أن الليل كله ينصت معنا، حتى الريح توقفت كأنها تنتظر ما سأقول.

رفعت رأسي ببطء نحو النافذة، كان القمر نصفه مضيء، نصفه غائب، والضوء المنعكس على الورق جعل الحروف تلمع كأنها تنبض بالحياة.

ابتلعت ريقي بصعوبة، ثم همست بصوتٍ خافتٍ بالكاد خرج من بين شفتيّ:

"أنا هنا... أسمعك."

مرت أيام لم أفتح فيها الدفتر، رغم أنه ظلّ أمامي كل ليلة، كأنه يراقبني في صمت.

وفي إحدى الليالي، بعد عملٍ طويلٍ أنهكني، جلست قرب النافذة والريح تتسلل من الشقوق القديمة، تحمل معها برودة غريبة تشبه الذاكرة.

فتحت الدفتر، نظرت إلى الصفحات الخالية إلا من تلك الجمل القديمة، ثم أمسكت القلم وكتبت:

ـ إن كنت حقًّا تسمعني، فأنا أريد أن أراك.

سكتُّ بعدها طويلاً، أحدّق في الصفحة، أنتظر أي رد، حتى بدأت الحروف تظهر ببطءٍ كما في كل مرة، كأنها تخرج من العدم.

ـ أنت متأكد من رغبتك؟ الرؤية ليست كما تتخيل.

ابتلعت ريقي بصعوبة، ثم كتبت مجددًا بيدٍ مرتجفة:

ـ أريد أن أعرف من أنت… أريد أن أراك.

ساد صمتٌ ثقيل، ثم هبّت نسمة باردة أطفأت المصباح الصغير بجانبي، وبقي ضوء القمر وحده يملأ الغرفة.

رفعت رأسي ببطء، وكان هناك… يقف عند الزاوية.

جسدٌ بشريّ الملامح، لكن وجهه لم يكن وجهًا كاملًا، كانت ملامحه تتحرك كضوءٍ يعجز عن الثبات، كأن الظلّ نفسه يحاول أن يتخذ شكلًا ولم ينجح بعد.

شعرت ببرودةٍ تسري في عروقي، قمت متراجعًا، والخوف يتسلل إلى صدري رغم أنه لم يتحرك نحوي.

نظر إليّ بصمتٍ طويل، ثم سمعته ـ لا بصوتٍ عالٍ، بل كصدى يأتي من داخلي ـ يقول:

ـ أخبرتك… وجهي لن تراه على حقيقته.

وقبل أن أنطق بكلمة، اختفى كما جاء، وكأن القمر ابتلعه مع نوره.

عدت أنظر إلى المكان الفارغ، أنفاسي متلاحقة، ثم إلى الدفتر المفتوح على الطاولة، وعليه كلمات جديدة لم تكن موجودة قبل لحظات:

ـ لا تخف... لم أعد كما كنت، لكنني ما زالت روحي طيبه.في صباح اليوم التالي، كان الجو هادئًا على غير العادة، والسماء صافية كأنها تُبشّر ببداية جديدة. جلست على طرف السرير، أرتب أغراضي بصمتٍ طويل، وكلّما وضعت شيئًا في الحقيبة، شعرت أنّ شيئًا آخر بداخلي يبقى هنا، في هذه الغرفة الصغيرة التي قضيت فيها شهورًا من الصمت والضجيج.

اليوم موعد إجازتي، ستة أيام في البلد بين أهلي، بعيدًا عن المحطة، بعيدًا عن الماكينات والحديد والليل الثقيل الذي لا ينام.

كان من المفترض أن أشعر بالراحة، لكن قلبي لم يطاوعني على الفرح تمامًا. نظرت إلى الحقيبة قبل أن أغلقها، وكان الدفتر موضوعًا في الداخل، كأنه يرفض أن يُترك خلفي.

مددت يدي نحوه وترددت لحظة، ثم فتحته. كانت الصفحات ساكنة في البداية، ثم تحركت إحداها وحدها ببطءٍ غريب حتى توقفت على صفحةٍ فارغة. لم تمر سوى ثوانٍ حتى بدأت الحروف تظهر عليها بخطٍّ مألوف:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

تجمّدت لوهلة، ثم ابتسمت بخفوتٍ خالٍ من الدهشة، وقلت بصوتٍ خافتٍ يكاد يُسمع لكي لا احد يسمعني ويقول عني أصبحت مجنوناً:

ـ لقد أتممت عملي اليوم... وسآخذ إجازتي الشهرية، فقط بضعة أيام وسأعود.

لم تمر سوى لحظات حتى ظهرت كلمات جديدة تحت ما قلت، بخطٍّ واضحٍ كعادته:

ـ لا يمكنك أن تأخذني معك، ولا يمكنني أن أغادر هذه المحطة، حتى وإن حملت الدفتر بين يديك.

ابتسمت، وهززت رأسي بخفةٍ كأنني أفهم ما يقصده.

ـ أعلم، هذه الأرض لك... والمكان يعرفك أكثر مما يعرفني.

ظلّت الصفحة ساكنة بعدها، لا كلمات جديدة، فقط بياضٌ صامت يشبه الرضا.

أغلقت الدفتر ببطءٍ ووضعته في الحقيبة، ثم قلت وأنا أستعد للمغادرة:

ـ لا تقلق، سأعود سريعًا.

خرجت من الغرفة بخطواتٍ هادئة، الشمس كانت بدأت تلوح من بعيد، ترسم خطوطًا ذهبية فوق أرض المحطة الرمادية. الهواء كان باردًا ومنعشًا، يمرّ بين الجدران ويصافح الذاكرة قبل أن يرحل.

وقفت لحظة أمام البوابة، التفتّ خلفي، نظرت إلى المبنى القديم، وإلى تلك النافذة الصغيرة التي اعتدت الجلوس بجوارها كل ليلة.

شعرت أن نظرة خفية تتابعني من هناك، مع همسات تقول لي:

ـــ اذهب، سأكون هنا حين تعود.

صعدت إلى الحافلة وجلست بجانب النافذة، وضعت حقيبتي بجانبي، ومررت يدي على موضع الدفتر داخلها. لم يكن هناك أي حركة، لا كلمات جديدة، ولا نسمة باردة كما اعتدت، فقط سكون عادي يشبه الهدوء بعد عاصفة طويلة.

بدأت الحافلة بالتحرك، والمكان يبتعد شيئًا فشيئًا. نظرت من النافذة، رأيت المحطة تصغر في الأفق، لكنها بدت كأنها لا تودّعني، بل تراقبني بصمتٍ ثقيلٍ يشبه الانتظار.

طوال الطريق، كنت أتأمل المناظر التي تمرّ أمامي، الحقول الممتدة، القرى الصغيرة، وجوه الناس المجهولين الذين يركبون وينزلون. ومع كل كيلومتر، كان الشعور بالحنين يزداد، لا إلى البيت، بل إلى المكان الذي تركته خلفي... إلى المحطة، وإلى الدفتر الذي لم يعد مجرد أوراق، بل شيء غامض يشبه الصداقة.

حين وصلت إلى قريتي، استقبلتني رائحة الأرض المبللة بندى الصباح، ووجوه أهلي التي لم أرها منذ أشهر. كانت الابتسامات صادقة، والحديث دافئًا، لكنّ شيئًا في داخلي ظلّ ساكنًا، كما لو أن جزءًا من روحي لم يصل بعد.

في تلك الليلة، بعد أن نام الجميع، جلست قرب النافذة في غرفتي القديمة، أخرجت الدفتر من الحقيبة، وضعته أمامي بهدوء، ثم همست بابتسامةٍ خفيفة:

ـ يبدو أننا لم نفترق تمامًا، أليس كذلك؟

لم يتحرّك الدفتر، لكنّ الريح التي عبرت من النافذة حرّكت أطراف صفحاته بخفّةٍ ناعمة، كما لو أنّه أجابني بطريقته.

أغلقت النافذة ببطء، وأسندت رأسي إلى الجدار، أشعر أن الغياب لم يعد غيابًا تامًّا، بل خيطًا خفيًّا ما زال يربطني بذلك المكان… وبصاحبه الذي لا يُرى.

***

في صباح اليوم التالي، استيقظ آسر على ضوءٍ هادئٍ يتسلل من نافذة غرفته القديمة، وكان صوت العصافير يملأ أجواء البيت في ذلك اليوم الذي يشبه صباحات الطفولة. بدا كل شيء حوله مألوفًا

على نحوٍ مؤلم؛ جدرانٌ يعرفها، وأصواتٌ اشتاق إليها، لكن داخله لم يكن كما كان. جلس على حافة السرير، يتأمل الغبار الذي يرقص في خيوط الضوء، يشعر أن المدينة التي تركها لم تفارقه تمامًا، وأن المحطة بصخبها وغموضها ما زالت تسكن أطراف تفكيره.

مدّ يده إلى الطاولة الصغيرة بجانبه، حيث كان الدفتر مستلقيًا كأنه كائنٌ يتنفس في صمت. لم يفتحه هذه المرة، لم تكن لديه الرغبة في الحديث أو القراءة، فقط اكتفى بالنظر إليه لبرهة قبل أن يهمس لنفسه بخفوتٍ لا يسمعه أحد:

«سأخرج اليوم، أحتاج بعض الهواء.»

غادر الغرفة بهدوء، مرّ بأمه التي كانت تحضّر الفطور في المطبخ، فأخبرها أنه سيذهب لزيارة عمّه. لم تسأله كثيرًا، لكنها ابتسمت قائلة:

ـــ بلّغه سلامي، وابقَ عندهم قليلًا، فهم يشتاقونك منذ زمن.

أومأ برأسه وخرج.

كان الطريق إلى بيت عمّه ممتدًا عبر الحقول القديمة، تلك التي كان يركض بينها وهو طفلٌ لا يعرف معنى القلق. الآن، يسير فيها رجلٌ يعرفه جيدًا، يعرف أنه مهما ابتعد فلن يهرب من ذاكرته.

كانت الريح تهبّ بخفّةٍ على وجهه، تحمل رائحة التراب الرطب وصوت أوراق القصب وهي تتمايل على جانبي الطريق.

كان سبب الزيارة أبسط مما يبدو، لكنه في داخله كان يعرف الدافع الحقيقي. لم يذهب لرؤية عمّه فقط، بل ليرى إن كانت ليان ما زالت هناك... الفتاة التي كانت جزءًا من ماضيه الذي لم يغادره، والاسم الذي ظلّ حاضرًا رغم كل ما أراد نسيانه.

حين وصل إلى بيت عمّه، وقف أمام البوابة الحديدية القديمة التي تصدر صريرًا خفيفًا حين تُفتح. تردّد لحظة قبل أن يطرق الباب، وكأنه يخشى أن تفتح له الذكريات قبل الأهل. وبعد لحظات،

خرجت عمّته بابتسامتها الدافئة التي لم تتغيّر منذ آخر مرة رآها فيها.

ـ آسر!، ادخل يا بني، عمّك سيُسرّ برؤيتك.

دخل بخطواتٍ مترددة، ألقى السلام وجلس في المجلس الذي يحمل عبق الزمن.

كانت جدران البيت مغطاة بصورٍ قديمة، بعضها لتلك الأيام التي كانت ليان فيها طفلةً تضحك في الحديقة، فمرّت أمام عينيه كأنها شريطٌ لا يريد التوقف. تحدّث مع عمّه عن العمل، عن السفر، وعن الأيام التي غاب فيها طويلاً، لكن حديثه لم يدم طويلاً. كان ذهنه في مكانٍ آخر.

لم تستغرق عمّته وقتًا طويلًا لتلحظ شروده، فقالت وهي تضع له كوبًا من الشاي:

ـ وجهك لم يتغيّر يا آسر... ما زلت تخفي ما تفكر فيه. من تبحث عنه؟

رفع نظره إليها بابتسامةٍ باهتةٍ، ثم قال بصوتٍ خافتٍ يشوبه التردد:

ـ فقط كنت أتساءل... أني لم ارا ليان وأحمد؟

نظرت إليه للحظةٍ صامتة، ثم أطرقت رأسها وقالت بهدوءٍ:

ـ ليان رحلت منذ بداية العام، وستأتي اليوم لان انتهت اختبارها وأحمد نائم.

بقي آسر صامتًا، يحاول أن يخفي انقباض صدره بابتسامةٍ مجاملة.

أكمل حديثه مع عمّه قليلًا، ثم استأذن للمغادرة بعد الغداء، رغم محاولات عمّته لإبقائه أكثر. خرج إلى الطريق، والشمس كانت تميل نحو الغروب، تنثر ضوءًا برتقاليًا على الحقول، تمامًا كما في آخر مرة رأى فيها ليان.

كان يسير ببطء، والهواء يعبث بخصلات شعره، بينما ذهنه يسبح في دوائر لا تنتهي. لم يكن الحزن الذي شعر به يشبه الألم، بل كان نوعًا من السكون العميق، كأن شيئًا ما بداخله اقتنع أخيرًا أن بعض القلوب لا يُكتب لها اللقاء، مهما طال الانتظار.

حين وصل إلى مشارف قريته، توقّف للحظة، التفت إلى الطريق الذي جاء منه، ونظر إلى الأفق حيث غابت الشمس. شعر أن الحياة تمضي بهدوءٍ، وأنه أصبح واحدًا من أولئك الذين يتأملون الماضي لا ليعودوا إليه، بل ليتأكدوا أنه كان حقيقيًا.

في تلك الليلة، جلس آسر قرب النافذة في غرفته، أخرج الدفتره القديم من خزانته، فتحه بهدوءٍ وهو يعلم أنه لن يجد فيه سوى الصمت وذكريات القديمة. لكن المفاجأة كانت في آخر الصفحات، التي كانت تحمل ذكرياته مع ليان:

قراء القليل من كتاباته القديمة، ثم أغلق الدفتر ببطءٍ وتركه على الطاولة.

أسند رأسه إلى الجدار، وأغمض عينيه، وفي ذهنه صورة المحطة تحت ضوء القمر، وصوت الماكينات البعيد، وصدى عبارةٍ لا تفارقه:

" لا يمكنك أن تأخذني معك، ولا يمكنني أن أغادر هذه المحطة، حتى وإن حملت الدفتر بين يديك. "

في تلك الليلة، ظل آسر جالسًا أمام النافذة، يراقب السماء الملبّدة ببقايا الغيوم، بينما كان القمر يطلّ خافتًا من بينها كعينٍ متعبةٍ تراقب الأرض بصمت. الهواء كان ساكنًا، والبيت غارق في سكونٍ ثقيل، لا يسمع فيه سوى دقات الساعة القديمة في الصالة.

أدار نظره نحو الدفتر على الطاولة،

ذلك الدفتر الذي حمل جزءًا من ماضيه، وبعضًا من وجعه.

مدّ يده إليه ببطء، فتحه من جديد، مرّر أصابعه على آخر الصفحات وكأنّه يلامس وجوهًا غابت منذ زمن.

قرأ سطرًا كان قد كتبه قبل أعوام، بخطٍّ مرتجفٍ وواضح:

ـ "أحيانًا، نظن أننا تجاوزنا الماضي، بينما نحن فقط نتعايش معه بصمت."

ابتسم ابتسامةً باهتة، ثم أغلق الدفتر مرة أخرى.

في عينيه بريقُ حنينٍ لا يريد الاعتراف به، وفي صدره ضجيجٌ من الذكريات المتشابكة.

نهض من مكانه، اقترب من النافذة، نظر إلى الحقول الممتدة في الظلام، وتذكّر الطريق المؤدي إلى بيت عمّه، وتلك البوابة القديمة التي كانت تُفتح على صوت ضحكةٍ يعرفها جيدًا.

جلس مجددًا على الكرسي، وضع رأسه بين كفّيه، وتمتم بصوتٍ خافتٍ كمن يحادث نفسه:

ـ مضت سنوات... وما زلت أبحث عن معنى لكل هذا.

في تلك اللحظة، لم يكن في الغرفة سوى هو وصدى صمته،

لكنّ شيئًا ما في الجوّ تغيّر ببطء.

رائحةٌ قديمة، كأنها خليطٌ من الإسمنت والحديد والغبار،

تسلّلت عبر النافذة المفتوحة، رائحة لم يعرفها إلا في مكانٍ واحد...

المحطة.

رفع رأسه ببطء، التفت نحو الباب، لا أحد.

إلى النافذة، لا شيء.

لكنّ الصوت البعيد للماكينات عاد يهمس في أذنيه من جديد،

صوتٌ واهن، كأن المكان الذي تركه هناك في المدينة يذكّره بأنه

لم يغادر بعد.

اقترب من النافذة أكثر، نظر إلى السماء حيث القمر بدأ يكتمل قليلًا، وشعر بأن الهواء البارد يلامس وجهه كما كان يفعل في ليالي العمل الطويلة.

كان في داخله إحساسٌ واضح... أن الماضي لا يناديه عبثًا.

جلس مجددًا، وأسند ظهره إلى الجدار، عيناه على الدفتر المغلق فوق الطاولة، وذهنه يبتعد أكثر نحو ذلك المكان الذي صار جزءًا منه، المكان الذي لم يتركه مهما حاول.

قال في نفسه قبل أن يغلبه النعاس:

ـ ربما لم أعد بحاجةٍ إلى أن أعود... فالمكان عاد إليّ.

وغفا أخيرًا، بينما الصفحة الأخيرة من الدفتر تحرّكت ببطءٍ مع نسمةٍ خفيفةٍ دخلت من النافذة، كأنها تذكّره بأن الحكاية لم تنتهِ بعد.

استيقظ آسر في اليوم التالي على ضوء الشمس يتسلل عبر الستائر،

خافتًا وهادئًا كأنه لا يريد إزعاجه.

جلس في مكانه ببطء، أغمض عينيه للحظةٍ محاولًا أن يتذكر الحلم

الذي كان يطارده قبل أن يفيق.

رأى فيه المحطة من بعيد، لكن هذه المرة لم تكن كما يعرفها،

كانت غارقة في ظلالٍ رمادية، تتصاعد منها أصوات الماكينات

ممزوجة بضحكةٍ خفيفةٍ لا يعرف مصدرها.

في الأيام التالية، حاول آسر أن يعيش حياته في القرية كأي إنسانٍ

عادي،

يستيقظ مع طلوع الشمس، يساعد والده في بعض الأعمال،

ويجلس أحيانًا مع أصدقائه القدامى الذين لم يلتقِ بهم منذ سنوات.

كان يضحك معهم، لكن ضحكته لم تكن كاملة،

وكأن شيئًا بداخله لا يشارك هذا الحاضر، بل يعيش في زمنٍ آخر.

في كل مساء، كان يجلس أمام البيت بعد أن ينام الجميع،

ينظر إلى الطريق الترابي الممتدّ بين الحقول،

ويستمع إلى صوت الريح وهي تمرّ بين أعواد القمح اليابسة.

أحيانًا يغمض عينيه ويخيّل له أنه يسمع صوت الماكينات من بعيد،

صوتًا خافتًا كأن المحطة نفسها لم تهدأ بعد،

وكأنها تتنفّس هناك في البعيد وتدعوه أن يعود.

في تلك الليلة، بعد أن نام الجميع، خرج آسر من البيت بهدوءٍ تام.

كان الليل صافيًا، والقمر يعلو السماء كعينٍ ساهرةٍ تراقب القرية من بعيد.

لم يكن يعرف إلى أين يتجه، كل ما شعر به هو رغبة غامضة في السير،

كأن الطريق يناديه ببطء، وكأن الهواء نفسه يريد أن يأخذه إلى مكانٍ يعرفه.

سار بمحاذاة النهر، حيث ينساب الماء في صمتٍ يشبه التنفس،

والنسيم البارد يمرّ على وجهه كهمسةٍ مألوفةٍ من زمنٍ مضى.

أشعل سيجارةً بصمتٍ، ومشى بخطواتٍ متزنةٍ فوق التراب الرطب.

لم يكن في ذهنه سوى أفكاره المبعثرة بين الماضي والحاضر، حتى توقّف فجأة، وكأن قلبه شعر بشيءٍ قبل أن تراه عيناه.

على الجانب الآخر من الطريق، كانت هناك فتاة تسير ببطء، شعرها منسدلٌ على كتفيها، وثوبها يلامس أطراف العشب.

كان الضوء المنعكس من القمر يغمر وجهها بهالةٍ هادئةٍ، كأنها خرجت من ذاكرته لتتمشى أمامه على مهل.

تجمّد مكانه لثوانٍ، أطفأ سيجارته، حتى همس لنفسه بخفوتٍ مترددٍ لا يكاد يُسمع:

ـ ليان؟

التفتت نحوه، نظرتها كانت ساكنة كالماء، لا دهشة فيها ولا خوف،

فقط هدوء غامض يشبه الليل نفسه.

تقدّم خطوةً صغيرة، وصوته خرج مرتجفًا رغم كل ما حاول إخفاءه:

ـ هل أضعتِ شي ما لتخرجي بهذه الوقت؟

ابتسمت بخفةٍ تكاد لا تُرى، ثم قالت بصوتٍ ناعمٍ متعبٍ كأنه يأتي من بعيد:

ـ لا لم تضع مني شي ولكن شعر بضيق في انفاسي بالمنزل فجئت إلى هذا طريق كما تعلم كان طريقنا المفضل في صغرنا ولا أظنك نسيت الطريق هذه، بما انك هنا، آسر.

شعر أن قلبه عاد ينبض كما لم يفعل منذ سنوات، لكن الكلمات علقت في حلقه، لم يعرف ما يقول.

اقترب أكثر، بخطواتٍ حذرةٍ، كأنه يخشى أن تختفي إن اقترب أكثر مما يجب.

كانت تنظر إليه بنفس الهدوء، لا تبتسم ولا تبتعد، كأنها تنتظر منه شيئًا لا يعرفه هو نفسه بعد.

وقف أمامها تمامًا، يفصله عنها ذراعٌ واحد، والليل من حولهما بدا وكأنه توقف ليستمع.

قال بصوتٍ خافتٍ مبحوحٍ:

ـ ظننت أنكِ رحلتِ... قالوا إنكِ قد انتهيتِ من اختبارات آخر سنة هل واجهتي صعوبة في حلها؟

خفضت عينيها للحظة، ثم همست بهدوءٍ غريبٍ:

ـ صحيح، كل شي بخير فـكل شي درسته قبل أن ادخل الاختبار.

فرح آسر بما سمعه وعرف انها لا زالت متفوقة كالعادة ثم قالت له:

ـ لو لم تتوقف في دراستك لكنا في نفس المستوى الان.

ابتسم آسر بخفة، محاولة منه لإخفاء ما شعر به من وخزٍ في قلبه.

ـ ربما... لكن الظروف لم تكن رحيمة بي كما كانت بكِ.

نظرت إليه ليان نظرة قصيرة، فيها مزيج من العتاب والشفقة، ثم قالت بهدوءٍ يشبه النسيم:

ـ كنتَ دائمًا أذكى مني، آسر، لكنك اخترت طريقًا آخر.

تنهّد وهو ينظر إلى الطريق المظلم أمامه، وقال بصوتٍ مبحوحٍ:

ـ لم أختر، يا ليان... بعض الطرق تُفرض علينا دون إذن.

سكتت للحظة، ثم مشت إلى جانبه بخطواتٍ بطيئةٍ هادئة، حتى بدا كأنهما يعودان لطفولتهما من جديد.

ـ أتذكر حين كنّا نمشي في هذا الطريق ونحن صغار؟

ابتسم وهو يحدّق في الأرض:

ـ كيف أنسى... كنتِ تسبقينني دائمًا، وتقولين إنك تريدين أن تسبقي ظلك.

ضحكت بخفوت، نظرة سريعة إلى القمر، ثم قالت:

ـ أيقنت ان ظل مهما فعلت سيصبح خلفي وان علي تغير من نفسي للأفضل .

ـ ربما، لكنّ بعض الأشياء لا تتغيّر، ليان.

التفتت إليه، وقد بدا في عينيها بريقٌ لم يفهمه، ثم قالت بصوتٍ خافت:

ـ وهل ما زلت تظن أن تلك الأيام ستعود؟

صمت آسر قليلًا، ثم أجاب بعد ترددٍ واضح:

ـ لا أعلم، أنا فقط سعيد لأنني أراكِ الآن.

لم تردّ بشيء، فقط اكتفت بنظرةٍ طويلةٍ نحوه، كأنها تودّع دون أن تنطق،

ثم استدارت ببطءٍ، وقالت بصوتٍ خافتٍ تذروه الريح:

ـ لا تحاول أن تعيد ما مضى، حاول تغير من نفسك أولا لتحصل علي ماتريد.

تراجع آسر خطوة إلى الوراء، ينظر إليها وهي تبتعد بهدوء، ثم همس لنفسه:

ـ في كلت حالات كنت اعلم انك لن توافقي من البداية ولكني احببت تجربه.

قبل أن تستدير تمامًا، توقفت ليان فجأة، وكأنها تذكّرت شيئًا نسيَته عمدًا.

التفتت نحوه نصف التفاتة، عيناها تلمعان بضوء القمر، وصوتها خرج هذه المرة أكثر دفئًا، لكنه محمّل بشيءٍ غريبٍ من الحنين:

ـ آسر... عيد ميلادي بعد ثلاثة أيام.

رفع حاجبيه بدهشةٍ خفيفة، لم يتوقع منها هذا القول بعد تلك الكلمات الباردة.

ابتسمت ابتسامة قصيرة وقالت:

ـ لا أعرف لماذا أخبرك، لكن... أريد أن تكون أنت أول من يهنئني هذا العام.

توقف الوقت في تلك اللحظة بالنسبة له، كأن كل ما حوله اختفى إلا صوتها.

قال بخفوتٍ وصدقٍ نادر:

ـ سأفعل، حتى لو كنت بعيدًا، سأكون أول من يقولها لكِ.

أومأت برأسها بخفة، ثم خطت خطوة للوراء وقالت بصوتٍ منخفضٍ يكاد يختفي مع نسمة الليل:

ـ تذكّر... لا تنسَ هذا الوعد، آسر.

راقبها وهي تبتعد في الطريق الترابي، حتى غابت ملامحها بين الظلال، وبقي هو واقفًا في مكانه، ينظر إلى الأفق المظلم وكأنه يحاول أن يحتفظ بصورتها داخله أطول وقتٍ ممكن.

همس لنفسه وهو يضع يده في جيبه، يبتسم ابتسامةً باهتة:

ـ حتى بعد كل هذا الوقت... ما زلتِ تعرفين كيف تتركين أثرًا في قلبي.

ثم سار ببطء نحو بيته، والليل من حوله بدا وكأنه يحتفظ بذلك الوعد بين طيات صمته.

تلك الليلة، عاد آسر إلى المنزل يسير بخطواتٍ بطيئةٍ كأنه يحمل على كتفيه شيئًا لا يُرى.

حين دخل، كانت أمه تجلس قرب الموقد، تنشّف يديها من أثر الماء.

سألها بصوتٍ هادئ:

ـ أمي، ما تاريخ اليوم؟

رفعت رأسها نحوه مبتسمة وقالت:

ـ اليوم هو الأول من ديسمبر يا ولدي.

أومأ برأسه، تمتم لنفسه وهو يصعد الدرج:

ـــ إذن... بعد يومين فقط، الثالث من ديسمبر... يوم مولدها.

في تلك الليلة لم يستطع النوم، جلس أمام مكتبه، كتب على ورقةٍ صغيرةٍ رسالةً قصيرةٍ، بخطٍ مرتبٍ وواضحٍ، لكنّه تركها دون توقيع.

طوى الورقة بعناية، ووضعها في ظرفٍ أبيض بسيط، لم يكتب عليه سوى اسمها.

حين أنهى، تنفّس بعمقٍ وقال بصوتٍ خافتٍ وكأنه يخاطبها من بعيد:

ـــ لن أرسلها باسمٍ، يكفيني أن تعرف من بين السطور من أكون.

وفي صباح اليوم التالي، الثاني من ديسمبر، خرج آسر باكرًا.

كانت شمس الشتاء باهتة، والضباب يعلو الطريق.

" ليان "

أخذ الظرف بيده، وسار نحو الشارع الذي تمرّ منه ليان كل صباح.

حين رآها من بعيد، توقّف طفلٌ صغيرٌ كان يحمل حقيبته المدرسية.

اقترب منه آسر، ابتسم بهدوءٍ وقال:

ـ خذ هذا الجواب، وامنحه للفتاة التي ترتدي المعطف الأزرق، وقل لها: لا تفتحيه إلا عند الثانية عشرة من منتصف الليل، مفهوم؟

أومأ الطفل بخجلٍ وقال:

ـ حاضر .

مضى آسر في طريقه مبتعدًا، دون أن يلتفت وراءه، وكأنه سلّم قلبه في ذلك الظرف وغادر.

***

حين حلّ الليل، جلست ليان في غرفتها تقلب كتبها، حتى لمحت الظرف على مكتبها.

تذكّرت كلام الطفل، فتوقّفت لحظة تنظر إلى الساعة.

كانت تشير إلى الحادية عشرة وتسعٍ وأربعين دقيقة.

انتظرت حتى تجاوزت الثانية عشرة، فتحت الظرف ببطء، وأخرجت الورقة.

كانت الكلمات مكتوبة بخطٍ تعرفه، وفي أول السطور كُتب:

" لا أعلم إن كانت هذه الكلمات ستصل إليك كما أريد،

لكنني أردت أن أكون أول من يذكّركِ بأن في هذا العالم من ما زال يتمنّى لك السعادة بصمت.

قد تغيّرت الأيام بيننا، لكن شيئًا في داخلي بقي كما هو،

يراكِ دائمًا بخيرٍ، حتى وإن لم أكن أنا سبب ذلك الخير.

ثم تابع في سطرٍ جديد، وهو يبتسم لنفسه:

كل عامٍ وأنتِ بخير،

وكل عامٍ وأنتِ أكثر مَن أحببتُه في هذه الحياة.

كل عامٍ وأنتِ سعيدة، هادئة، جميلة كما عهدتُك.

كل عامٍ تمرّ عليكِ، يكون أجمل لأنك فيه.

كل عامٍ وأنتِ كل ما تمنّيتُه يومًا، ولم أستطع الوصول إليه.

وكل عامٍ... أحبّك، حتى وإن لم تحبّيني."

ابتسمت بخفة، عيناها تلمعان مع ضوء الهاتف الخافت.

لكنها لاحظت أن الورقة بلا توقيع، ولا اسم.

تمتمت لنفسها:

ـ من المرسل؟

قبل أن تفكر أكثر، جاء إشعارٌ على هاتفها، رسالة قصيرة من

"آسر":

ـ هل قرأتِ الجواب؟

تسارعت أنفاسها للحظة، ثم أجابت دون تردد:

ـ إذًا... أنت المرسل؟

بقيت تحدّق في الشاشة تنتظر الرد، لكن آسر لم يكتب شيئًا بعدها.

فقط كانت ترى ثلاث نقاطٍ تتحرك... ثم تختفي.

مرّت دقائق طويلة، كانت ليان تحدّق في شاشة هاتفها بترقّبٍ صامت، قلبها يخفق على نحوٍ لم تعرفه منذ زمن.

رفعت رأسها نحو النافذة، كان الليل ساكنًا، والقمر يرسل ضوءه الفضيّ على أطراف الستائر، وكأن العالم كلّه ينتظر أن يكتب آسر شيئًا.

لكن لا شيء.

لا رسالة، لا ردّ.

فقط تلك النقاط الثلاث التي ظهرت مجددًا للحظة… ثم اختفت مرة أخرى.

أعادت النظر إلى الورقة التي بين يديها، إلى الكلمات التي لم تُوقّع باسم أحد، لكنها تحمل صوته بين حروفها.

ابتسمت بخفةٍ حزينةٍ، ثم كتبت له أخيرًا:

ـ كنتُ أعلم أنك أنت… حتى من دون أن تكتب اسمك.

أرسلت الرسالة، وانتظرت قليلاً، ثم أطفأت الهاتف ووضعته بجانبها.

أسندت رأسها إلى الوسادة، تملأ صدرها تنهيدة دافئة امتزجت بين الحنين والارتباك.

همست لنفسها بصوتٍ خافتٍ:

ـ " ليتك تعلم، يا آسر، كم كنت أتمنى أن أردّ على كلماتك بالموافقة على حبك، ولكن جسدي لم يعد كما كان... المرض الذي في صدري يزداد يومًا بعد يوم.

لم أخبر أحدًا، حتى أقرب الناس إليّ، لأنني لا أريد أن أُرهق أحدًا بضعفي.

أرجوك، لا تكتب لي كثيرًا... لا أريد أن أراك تزداد حزنًا بموتي. "

أغمضت عينيها بعد أن همست بتلك الكلمات، ولم تُرسلها.

احتفظت بها في مسودة الرسائل، كأنها وعدٌ مؤلم بينها وبين نفسها فقط.

وفي تلك اللحظة، وفي الجانب الآخر من المدينة، كان آسر جالسًا في الظلام، شاشة هاتفه تضيء بخفوتٍ مع وصول الرسالة.

***

قرأها ببطءٍ، وابتسم ابتسامة قصيرة كأنها انتصرت على كل المسافات التي بينهما.

أمسك الهاتف وكتب:

ـ هل احتسبها موافقة؟

تردّد قليلًا، ثم ضغط على "إرسال".

ظلّ يراقب الشاشة، ينتظر تلك العلامة الصغيرة التي تدل على أنها قرأت الرسالة.

لكن الوقت مرّ ببطءٍ ثقيل، دون أي إشعار جديد.

رفع رأسه نحو السماء من خلف النافذة، القمر في منتصفها، والليل بدا أطول من المعتاد.

عاد ينظر إلى هاتفه من جديد، فانتبه لتفصيلٍ صغيرٍ على الشاشة، جعل قلبه يخفق بخفقةٍ غريبة:

بقيت تحدّق في الجملة طويلاً، ثم أغمضت عينيها وتنهدت بعمق، وكأنها تحاول إخماد نارٍ في صدرها.

أخيرًا كتبت له ببطءٍ، وكل كلمةٍ كانت تُثقل قلبها أكثر من التي قبلها:

ـ لا يا آسر، لا تحتسبها كذلك.

أعتذر إن كنت أوهمتك بشيءٍ لم أقصده، لكن ما بيننا مضى، والآن كلٌّ منّا يسير في طريقه.

أرجوك، لا تغضب... فقط تذكّر أنني كنت دائمًا أتمنى لك الخير، حتى وإن لم أكن جزءًا منه.

توقّفت قليلاً قبل أن تضغط على "إرسال"، ثم أرسلتها وهي تغمض عينيها، كأنها أرادت ألا ترى أثر الرسالة وهي تُغادر شاشة هاتفها.

في الجهة الأخرى من المدينة، استيقظ آسر على صوت إشعارٍ خافت، مدّ يده نحو الهاتف بتعبٍ، فتح الرسالة، قرأها كلمةً كلمة، ثم ظلّ صامتًا لوقتٍ طويل.

لم يكتب شيئًا.

لم يحذف الرسالة.

فقط وضع الهاتف على الطاولة، وأشعل سيجارةً جلس يراقب دخانها يتلاشى في الهواء.

كان داخله صراعٌ صامت، بين عقلٍ يعرف أن ما حدث طبيعي، وقلبٍ لم يتعلم بعد كيف يتخلى عمّن أحبّهم بصمت.

حين مالت الشمس إلى الغروب، بدأ يجمع أغراضه دون تفكير، طوى ملابسه في الحقيبة، وضع خوذته القديمة على الطاولة، وألقى نظرةً أخيرة على الغرفة التي اعتادت انتظار رسائله.

تمتم بصوتٍ منخفضٍ وهو يغلق الحقيبة:

ـ غدًا... سأعود إلى المحطة، إلى الصمت الذي يفهمني أكثر من الناس.

نظر إلى هاتفه للمرة الأخيرة، كانت رسالتها الأخيرة ما تزال على الشاشة،

قرأها مرةً أخرى، ثم أطفأ الجهاز دون أن يردّ،

وهمس وهو يغادر الغرفة:

ـ لا بأس... كنتُ أتوقع النهاية، لكني لم أتوقع بأن تجربة سوف تؤلمني هكذا.

كان آسر ما يزال جالسًا على حافة السرير، الحقيبة نصف مغلقة أمامه، ينظر إليها دون رغبة حقيقية في السفر أو البقاء.

الساعة تقترب من منتصف الليل، والمدينة غارقة في سكونٍ ثقيل.

مدّ يده إلى الهاتف بعد ترددٍ طويل، فتح الشاشة بلا هدف، فجأة ظهر إشعار جديد، رسالة من "ليان".

توقّف قلبه للحظة قبل أن يفتحها، كانت كلماتها قليلة، لكنها جعلت كل شيءٍ في داخله يتوقف:

ـ ما الذي جعلك تحبّني كل هذا الحب يا آسر؟

قرأها مرتين... ثلاثًا، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة، كأنها مزّقت شيئًا كان يخفيه منذ زمن.

جلس على حافة السرير، أطفأ المصباح، ولم يبقَ سوى ضوء القمر

ينساب على ملامحه وهو يكتب ردّه ببطءٍ وصوت قلبه أعلى من أنفاسه:

ـ لا أدري بالضبط، ربما أحببتك لأنك كنتِ مختلفة عن كل ما حولي، ولكني أحببتك حب لم احبه لأحد من قبل ، أحببتك لأنك لم تحاولي أن تكوني أحدًا غير نفسك، أحب ابتسامتك احب تلك الغمازة التي تضئ وجهك، وسأبقي احبك الى ان تبقي ملكي، الي ان يجمعنا بيت واحد ، انتي جميلتي وملكة قلبي حتى دفتري من صغري وانا كل احادثه اكتبها لكي، عندما اراكي كان كل شيءٍ يختفي حولي ولا أرى غيرك في هذه العالم.

توقّف لحظة، ثم أضاف:

ـ أحببتك يا ليان لأنك كنتِ الضوء الذي لم أبحث عنه، لكنني وجدته، ولم أستطع بعده أن أرى الظلام كما كان.

أرسل الرسالة، ثم أسند رأسه إلى الجدار، وعيناه تتابعان ضوء القمر وهو يتمدّد على الجدار أمامه.

شعر أنه أخيرًا قال ما كان يخفيه لسنوات، لكنّه أيضًا شعر بثقلٍ غريبٍ في صدره، كأنه كتب وصيّةً لا رسالة.

مرّت دقائق طويلة قبل أن يهتزّ الهاتف مجددًا، فتح الشاشة بلهفةٍ، فوجد ردّها البسيط:

ـ أحيانًا، يا آسر، لا يستحقّ الضوء كل هذا العناء الذي يسبّبه للحالمين به.

بقي ينظر إلى الرسالة دون أن يرد، ثم أغلق الهاتف ببطء، وضعه على الطاولة، وقال بصوتٍ خافتٍ أقرب إلى الهمس:

ـ لكنني كنتُ من أولئك الحالمين... ولن أتراجع الآن.

في صباح اليوم التالي، كانت السماء ملبّدة بغيومٍ رماديةٍ ثقيلة، كأنها تعكس ما يشعر به آسر في داخله.

أغلق باب البيت خلفه بهدوء، وسار في الطريق المؤدي إلى محطة الحافلات، حقيبة صغيرة بيده، وهاتفه في جيبه، وذهنه غارق في صمتٍ لا ينتهي.

كانت الشوارع شبه خالية، والمحال لم تفتح بعد، والريح تمرّ بين الأشجار بأصواتٍ متقطعةٍ كأنها تهمس له بشيءٍ لا يفهمه.

جلس على مقعدٍ خشبيٍّ ينتظر الحافلة، وبينما كان ينظر إلى الطريق الممتد أمامه، اقتربت منه امرأةٌ ترتدي عباءة داكنة، تغطي نصف وجهها بوشاحٍ أسود، وفي يدها حقيبة صغيرة من الجلد القديم.

وقفت أمامه دون مقدمة وقالت بصوتٍ مبحوحٍ غريبٍ يشبه الصدى:

ـ وجهك يحمل ثقل الحيرة يا فتى، كأنك تمشي وفي صدرك سؤال لم تجبه الأيام بعد.

نظر إليها آسر باستغرابٍ دون أن يرد، ثم أنزل عينيه في صمت.

تابعت هي بصوتٍ خافتٍ أقرب إلى الهمس:

ـ لا تقل شيئًا... أستطيع أن أرى ما يشغلك دون أن تنطق.

سكتت لحظة، أغلقت عينيها كأنها تستمع لشيءٍ لا يسمعه سواه، ثم فتحتها فجأة وقالت بصوتٍ متغيّرٍ غريبٍ:

ـ ماذا لو جعلتها تحبك؟

رفع آسر رأسه ببطءٍ نحوها، في عينيه مزيج من الدهشة والحذر.

ـ ماذا قلتِ؟

ابتسمت المرأة بخفوتٍ، ابتسامة لم تحمل دفئًا ولا خبثًا، فقط غموضًا خالصًا.

ـ ليان... أليست هي من يشغل بالك؟ أليست من هربت من بين يديك.

تراجع آسر خطوة إلى الخلف، صوته خرج مرتجفًا قليلًا:

ـ كيف... كيف تعرفين اسمها؟ من أنتِ؟

قالت ببرودٍ وهي تقترب منه ببطء:

ـ لا شأن لك بمن أكون، المهم أنني أستطيع أن أُبدّل ما كتب لك القدر.

أخبرني فقط، ماذا تدفع إن جعلتها خاتمًا في إصبعك، لا ترى غيرك، ولا تهوى سواك؟

تجمّد آسر في مكانه، قلبه يدقّ بعنف، كانت الكلمات تغريه كمن يسمع وعدًا من المستحيل نفسه.

ثم قال بعد صمتٍ قصيرٍ، ونظره ثابت نحوها:

ـ أيّ شيءٍ تريدينه... أيّ شيء، ولكن بشرطٍ واحد.

رفعت حاجبها:

ـ ما هو؟

ـ ألا تؤذيها... لا أريد أن يمسّها ضرر، ولو بشعرةٍ واحدة.

ابتسمت من جديد، نظرة غريبة في عينيها تشبه النور الخافت قبل العاصفة.

مدّت يدها نحوه وقالت:

ـ لن أؤذيها، فقط سأجعلها تراك كما تراها أنت.

لكن أريد شيئًا بالمقابل... تلك الساعة التي في معصمك.

نظر آسر إلى ساعته القديمة، كانت ساعة والده التي لم يفارقها يومًا، هدية صغيرة لا يعرف كيف يعيش من دونها.

تردّد للحظة، ثم رفع رأسه نحوها وسأل بهدوءٍ متوجّس:

ـ لماذا الساعة؟

قالت بصوتٍ خافتٍ وكأنها تبوح بسرٍّ لا يجب أن يُقال:

ـ لأن الوقت هو الشيء الوحيد الذي لا يُستردّ... ومن يغيّر القدر، يجب أن يدفع بثوانٍ من عمره.

تردّد آسر لحظاتٍ وهو ينظر إلى الساعة في معصمه، كانت قديمة، محفورٌ على ظهرها اسمه بخطّ والده، شيءٌ من ماضيه لا يقدّر بثمن.

لكن في تلك اللحظة، لم يكن يفكّر بعقله، بل بقلبٍ مثقلٍ لم يعرف سوى اسمٍ واحدٍ ينبض بداخله: ليان.

مدّ يده ببطءٍ، فكّ الساعة من معصمه، ناولها للمرأة التي لم تبعد عينيها عنه لحظة.

أمسكتها بخفةٍ كأنها تتسلّم وعدًا أكثر من كونها شيئًا ماديًا، ثم أغلقت كفّها حولها وقالت بصوتٍ خافتٍ ثابتٍ:

ـ من الآن، لن تعود الأمور كما كانت.

لكن تذكّر يا آسر... لا تغادر هذه البلدة في الأيام القادمة، مهما حدث، ومهما سمعت، ومهما خفت.

تجهم وجهه، نظر إليها بقلقٍ وقال:

ـ لماذا؟ ما الذي سيحدث؟

رفعت نظرها نحوه، وفي عينيها وميضٌ غامضٌ أشبه بوميض برقٍ بعيد:

ـ الوقت سيتغيّر من حولك، وسيختلط ما كان بما سيكون، وما تبحث عنه سيبحث عنك أيضًا.

فقط ابقَ هنا... حتى تنتهي الدائرة.

قبل أن يسألها عن معنى كلامها، أغلقت عينيها لثوانٍ، تمتمت بكلماتٍ لم يفهمها، ثم فتحت راحة يدها لتضع الساعة على راحة كفّها الأخرى.

فجأةً، لمع سطحها بوميضٍ باهتٍ كأن الضوء ينبض من داخلها،

واختفى ذلك الوميض في ثوانٍ، لتعود الساعة عادية تمامًا... إلا من خدشٍ صغيرٍ لم يكن موجودًا قبل قليل.

ناولته الساعة من جديد، وقالت:

ـ خذها... الوقت ملكك من جديد، لكن بثمن.

حين تدقّ منتصف الليل، ستفهم ما أعنيه.

تراجع آسر خطوةً إلى الخلف، ما زال ينظر إلى الساعة التي أصبحت فجأة أثقل من ذراعه، كأنها تحمل شيئًا أكبر من معدنٍ وزمن.

نظر إلى المرأة وهو يشعر باضطرابٍ غريبٍ في صدره، مزيجٍ من الخوف والفضول.

ـ أيُّ ثمنٍ تقصدين؟

سألها بنبرةٍ حاول أن يخفي فيها ارتباكه.

ابتسمت بخفةٍ غامضة وقالت:

ــ الثمن لا يُدفع بالمال يا آسر، بل بالزمن نفسه.

سيأخذ الوقت منك شيئًا... ويمنحك مقابله ما تمنّيت، لكن لا أحد يغيّر القدر دون أن يخسر شيئًا.

رفع عينيه نحوها بدهشةٍ حقيقية، ثم قال:

ــ كلامك غامض... لا أفهم ما الذي فعلته بالضبط.

اقتربت خطوة، ورائحة أعشابٍ غريبةٍ خرجت من حقيبتها حين فتحتها قليلًا.

قالت بصوتٍ خافتٍ أشبه بالتمتمة:

ــ حين تدقّ الساعة منتصف الليل، إن كنت صادقًا في حبك لها، فستبدأ الرؤيا الأولى.

لا تخف مما ستراه، ولا تُجِب إن نادتك باسمك... فالكلمة الأولى هي ما يفتح الطريق، والكلمة الثانية هي ما يُغلقه.

رفع حاجبيه بقلقٍ واضح:

ـ عن أي طريق تتحدثين؟

لكنها لم تُجب.

اكتفت بأن غطّت وجهها بالوشاح من جديد، وقالت وهي تبتعد بخطواتٍ هادئةٍ على الطريق الترابيّ:

ـ تذكّر ما قلت لك... لا تغادر البلدة، ولا تفتح الباب إن سمعته يُطرق بعد منتصف الليل.

ظلّ آسر يحدّق في المكان الذي اختفت عنده، لكن الغبار وحده بقي في الهواء، يدور كأنه يحمل أثر خطواتها.

في تلك الليلة، عاد آسر إلى غرفته متعبًا ومضطربًا.

ألقى الحقيبة جانبًا، جلس على السرير، وأخذ يتأمل الساعة التي في معصمه، لم تكن مختلفة كثيرًا، إلا أن عقرب الثواني كان يتحرك ببطءٍ غير طبيعي، كأن الوقت فقد توازنه.

مرّت الدقائق ثقيلةً، والهدوء يملأ الغرفة، حتى اقتربت الساعة من الثانية عشرة.

حدّق فيها بصمت، وكل نبضةٍ من قلبه كانت تضرب مع كل حركةٍ لعقرب الثواني.

حين دقّت منتصف الليل، ارتجف العقرب فجأةً وتوقف، ثم دوى في الغرفة صوتٌ خافتٌ كأن أحدًا يتحدث من بعيد، صوتٌ لم يكن من العالم الذي يعرفه.

"آسر..."

تجمّد في مكانه.

رفع رأسه نحو الباب، لم يكن هناك أحد.

الهواء في الغرفة تغيّر، صار أثقل، والقمر من خلف النافذة بدا أكبر، أقرب، كأنه ينظر إليه مباشرة.

همس بخوفٍ مكتوم:

ـــ من هناك؟

لم يأتِ رد، لكن الساعة على معصمه بدأت تدقّ وحدها، صوتها صار أعلى، كأنها قلبٌ ينبض خارج الجسد.

اقترب منها ببطءٍ، نظر إلى العقارب، فوجد أن المؤشر لا يشير إلى الثانية عشرة... بل إلى رقم ٣،

كُتب تحته بخطٍّ صغيرٍ لم يكن موجودًا من قبل:

"ما يُؤخذ بالوقت، لا يُستردّ بالزمن."

تراجع آسر خطوةً، شعر ببرودةٍ تسري في أطرافه، ثم سمع الصوت من جديد، أقرب هذه المرة، هامسًا باسمه بوضوحٍ غريبٍ يشبه همس أنفاسٍ عند أذنه:

"آسر... حان وقت ما اخترت."

تجمّد في مكانه، كأن الهواء نفسه تجمّد معه، أنفاسه صارت ثقيلة، والساعة بين يديه بدأت تهتزّ بخفّةٍ غريبة، ضوءها الخافت اتّسع حتى ملأ المكان بضوءٍ أبيضٍ باردٍ، يشبه ضوء القمر حين ينعكس على الحديد البارد في ليالي المحطة.

رفع عينيه حوله، فلم يجد أحدًا.

كان وحده في منتصف الطريق، لكن الظلال على الأرض بدأت تتحرّك ببطءٍ، كأنها تتنفس، كأنها تنظر إليه.

سمع الهمس من جديد، هذه المرة بوضوحٍ أكبر:

ـ أنت من سلّمت الوقت، وأنا من سأعيد ترتيب ما تبقّى منه.

فتح فمه ليتحدث، لكن صوته لم يخرج.

نظر إلى الساعة، فوجد عقاربها تدور بسرعةٍ هائلةٍ إلى الخلف، حتى توقّفت فجأة عند رقم ٣، وبدأت تدقّ ثلاث مراتٍ متتاليةٍ، كلّ دقّةٍ منها كأنها تسحب شيئًا من داخله.

انحنى آسر قليلًا، وضع يده على صدره، شعر بخفقانٍ مؤلمٍ، وكأن شيئًا يُنتزع من قلبه، ثم بدأ يرى صورًا تتراقص أمام عينيه، المحطة، العمّال، الدفتر القديم، وجه ليان، ابتسامتها، صوتها حين قالت له "لو لم تتوقف عن دراستك لكنا في المستوى نفسه."

لكن الأصوات بدأت تتداخل، تتشوّه، وصار كل شيءٍ حوله يدور، إلا الساعة،كانت ثابتة، تلمع كعينٍ تراقبه.

ثم ظهر أمامه ضوءٌ خافتٌ آخر، وفيه ظلّ تلك المرأة، الساحرة، تقف بثوبها الأسود الطويل، شعرها يتطاير مع الريح رغم سكون الهواء.

ابتسمت بهدوءٍ وقالت:

ـ لقد بدأت، يا آسر. السحر لا يعود للوراء، والوقت لا يُستردّ مرتين.

حاول أن يصرخ، لكن صوته اختنق في حلقه، رفع الساعة أمامها وقال بصوتٍ متقطعٍ:

ـ توقّفي... لا أريدها هكذا!

اقتربت منه بخطواتٍ بطيئةٍ، نظرتها ثابتة لا ترمش، وقالت بنبرةٍ خافتةٍ تحمل شيئًا من الشفقة:

ـ كان عليك أن تفكر قبل أن تختار، لقد طلبتَ أن تحبّك... لا أن تكون بخير.

اختفت فجأة كما ظهرت، وبقي آسر وحيدًا، يسمع دقات الساعة في صدره، لا في يده، كلّ دقّةٍ تذكّره بأن شيئًا منه يُسحب إلى مكانٍ لا رجعة منه.

رفع رأسه نحو السماء، كانت النجوم تومض ببطءٍ، وكأنها تراقب نهاية اتفاقٍ لم يجرؤ أحد على كسره.

تمتم بصوتٍ متعبٍ، بالكاد سمع نفسه يقول:

ـ يا ليان... يبدو أن حبّي هذه المرة لن يتركني حيًّا.

***

في تلك الليلة، كانت ليان تشعر بتعبٍ غريبٍ في جسدها، صداعٌ خفيف ودفءٌ يسري في عينيها كأن النوم يجذبها بقوة لا تُقاوَم.

أغلقت كتابها، تمددت على السرير، وأسندت رأسها إلى الوسادة وهي تهمس:

ـ لا أعلم لماذا أشعر بثقلٍ كهذا... ربما لأني فكّرتُ كثيرًا.

أغمضت عينيها، ولم تمضِ سوى دقائق حتى وجدت نفسها كانت تقف وسط طريقٍ ضبابي، السماء مغطاة بسحابةٍ بلونٍ رماديٍّ خافت، والهواء يحمل رائحة المطر قبل أن يسقط.

لم يكن هناك أحد، لكنها شعرت أنّ أحدًا يراقبها من بعيد.

خطت خطوةً للأمام، فانشقّ الضباب قليلًا لتلمح ظلاً يقف قرب عامود إنارة، وجهه لم يكن واضحًا، لكنه بدا مألوفًا بطريقةٍ مؤلمةٍ وغامضة.

اقتربت منه، وكلما اقتربت أكثر، خفق قلبها بشدة حتى شعرت أنّ صدرها سينفجر من شدّة نبضه.

لم تتحدث، ولم يتحدث هو، لكنها أحسّت بصوتٍ في داخلها يقول:

ـ اشتقتُ إليكِ... منذ زمن.

تجمّدت في مكانها، ثم رأت يده تمتد نحوها، وفي عينيه دفءٌ يشبه ما كانت تبحث عنه دائمًا دون أن تعرف اسمه.

مدّت يدها نحوه دون وعي، لكن قبل أن تلمسه، سقط ضوء الإنارة فجأة، وغمرهما ظلامٌ خفيف كأنه غطاءٌ من السكون.

حين فتحت عينيها، وجدت نفسها في سريرها، العرق يغطي جبينها، وقلبها ما زال يخفق بقوةٍ غريبة.

جلست تمسح وجهها بيدها، وهمست لنفسها بصوتٍ خافتٍ متردد:

ـ كان حلمًا... نعم، حلم فقط.

لكن شيئًا في داخلها لم يصدق ذلك، كأن الحلم ترك أثره في أعماقها، دفئًا لم تعرف سببه، واشتياقًا لشخصٍ لا تتذكر ملامحه تمامًا.

ومنذ تلك الليلة، بدأت تشعر بشيءٍ غريبٍ في قلبها...حنين لا يُفسَّر، وقلقٌ هادئ لا تعرف مصدره، كأن قلبها استيقظ على صوتٍ لم تسمعه من قبل .

صوتٍ لم يكن من هذا العالم.

في صباح اليوم التالي، استيقظ آسر باكرًا على صوت العصافير بين الأشجار القريبة من بيته.

كان يشعر بخفةٍ غريبةٍ في جسده، كأن شيئًا تغيّر داخله منذ الليلة الماضية.

جلس على السرير، نظر إلى معصمه الخالي من الساعة، ثم إلى النافذة التي تسرب منها ضوء النهار،

وهمس لنفسه بابتسامةٍ باهتة:

ـ لعلها الآن بدأت تشعر بي...لم يكن يدري إن كان ما قاله نابعًا من يقينٍ أو وهم، لكنه شعر أن قلبه أكثر هدوءًا، كأن وعد المرأة الغامضة بدأ يتحقق ببطء.

في الجانب الآخر من المدينة، كانت ليان تجلس في غرفتها أمام المرآة.

وجهها بدا مختلفًا قليلًا، ناعمًا أكثر، وفي عينيها بريق لم تعرفه من قبل.

تأملت نفسها لثوانٍ ثم تنفست بعمقٍ، وفجأة وجدت في ذهنها صورةً خاطفة ، وجه آسر.

حاولت أن تتجاهلها، لكنها عادت كأنها تلاحقها من زاوية الذاكرة.

وضعت يدها على صدرها، وشعرت بنبضةٍ قويةٍ جعلتها تغمض

عينيها للحظة.

وفي تلك اللحظة تحديدًا، حدث شيء غريب... رأته.

رأت آسر بوضوح، لا كصورةٍ في الخيال، بل كأنه يقف أمامها في الغرفة نفسها.

كان صامتًا، ينظر إليها بعينيه العميقتين، والضوء القادم من النافذة انعكس على وجهه حتى بدا حقيقيًا تمامًا.

تراجعت خطوة إلى الوراء، ودموعها تلمع دون سببٍ واضح، ثم همست بصوتٍ مرتعش:

ـ آسر؟ أهذا أنت؟

لم يجب، لكن ابتسامة خفيفة ظهرت على وجهه، وهي شعرت بدفءٍ يسري في قلبها، كأنها أخيرًا وجدت ما كانت تفتقده منذ زمنٍ طويل.

رفعت يدها نحوه دون أن تدرك ما تفعل، وقالت بكلمات خرجت منها دون وعيٍ كامل، كأن شخصًا آخر يتحدث من داخلها:

ــ لا أعلم كيف ولا لماذا، لكنني... أحبك.

وفجأة، اختفى وجهه كما ظهر بلا أثر.

بقيت ليان واقفة في مكانها، تنظر إلى الفراغ بعينين متسعتين، تحاول التقاط أنفاسها وهي تهمس لنفسها:

ــ ما الذي قلته للتو؟ ولماذا أشعر أن قلبي لم يعد لي؟

جلست على طرف السرير، تمسك رأسها بين يديها، بينما في الجانب الآخر، كان آسر في بيتة مستلقي علي سريره ينتظر ما سيحدث ، ينظر إلى يديه بدهشة، وكأن حرارة غريبة تسري فيهما، ثم يبتسم ببطءٍ، ويقول في نفسه:

ــ يبدو أن السحر بدأ يعمل حقًا.

مرّت ليلتان منذ ذلك الحلم الغريب، ولم تعد ليان تعرف الفرق بين ما تراه في نومها وما تشعر به في يقظتها.

كانت ترى آسر في كل زاوية، في الشارع، في الجامعة، حتى بين الحشود

وجهه لا يغيب عن بالها، وصوته يتردد في أذنيها كصدى بعيدٍ مألوف.

وفي الليلة الثالثة، حين هدأ كل شيء، أطفأت الأنوار واستلقت على سريرها، لكن النوم لم يأتِ بسهولة؛ كلّما أغمضت عينيها، كان وجه آسر يقترب منها أكثر، يبتسم لها بتلك النظرة التي تشبه الهدوء بعد المطر.

وفجأة، لم تعد الصورة خيالًا، رأته يقف عند باب غرفتها، الضوء المنبعث من القمر ينعكس على كتفيه، عيناه تلمعان بشيءٍ بين الحنان والنداء.

تنهّدت بخفوت، لا خوف فيها هذه المرة، بل انجذابٌ خالص.

مدّت يدها نحوه وهمست بصوتٍ خافتٍ متعب:

ـ لماذا لا تفارقني؟ كلّما حاولت نسيانك، أراك أقرب.

اقترب منها ببطءٍ، وصوته يأتي واضحًا كأنه حقيقي:

ـ لأنكِ الآن تسمعين بقلبك لا بعقلك، والقلوب لا تُخطئ ما كُتب لها.

دمعت عيناها وهي تهمس:

ـ إذًا لم يكن حلمًا... كنتَ حقًّا هنا.

مدّ يده نحوها، لكنها لم تلمس سوى الهواء، ثم اختفى كما اعتاد أن يفعل، وظل صدى صوته الأخير يتردد في الغرفة:

ـ ستعرفين غدًا ما يعني أن يحبّك قلبٌ لم يعرف النسيان.

استيقظت ليان فجرًا، أنفاسها متلاحقة، وقلبها يخفق كأنه يركض وراء شيءٍ لا يُدرك.

جلست على السرير، تمسك هاتفها، وعينها تمتلئ بدموعٍ دافئةٍ لا تعرف سببها.

فتحت تطبيق الرسائل، كتبت ببطءٍ، بأصابعٍ مرتجفة، كأن الكلمات تخرج من أعماقها دون تفكير:

“آسر... لا أعرف ما الذي حدث لي، لكنني لم أعد أستطيع إخفاءه، أحبّك... كثيرًا، أكثر مما كنت أتخيّل.”

ضغطت زر الإرسال، ثم أسندت الهاتف إلى صدرها، وأغمضت عينيها والابتسامة تملأ وجهها، كأنها أخيرًا وجدت ما كانت تبحث عنه.

وفي تلك اللحظة، كان آسر في المحطة يرفع رأسه نحو السماء، يشعر بحرارةٍ تسري في جسده من دون سبب، ويهمس بابتسامةٍ

خافتةٍ:

ـ أخيرًا... تمت الدائرة.

لم تمضِ ساعاتٌ على رسالتها الأخيرة حتى اهتزّ هاتف آسر في يده، أمسكه بسرعةٍ، ونظر إلى الشاشة.

كانت الرسالة من ليان.

فتحها، فقرأ بصوتٍ خافتٍ مترددٍ كأنه لا يصدق:

"آسر... لا أعرف ما الذي حدث لي، لكنني لم أعد أستطيع إخفاءه،أحبك كثيرًا، أكثر مما كنت أتخيّل."

ظل يحدّق في الكلمات طويلاً، كأنها جاءت من زمنٍ بعيدٍ لم يكن يظن أنه سيعود.

ثم زفر بعمق، وابتسم ابتسامةً حزينة، وكتب ردًا سريعًا:

"ما الذي تقولينه يا ليان؟

ألم تقولي من قبل إنكِ لا تبادلينني الشعور؟

لا تقلقي... لقد تخطّيتُ حبّك منذ زمن."

أرسل الرسالة، وأسند الهاتف إلى الطاولة، لكن يده بقيت ترتجف بخفة، كأن جزءًا منه يرفض تصديق ما كتب.

لم تمر دقائق، حتى جاء الرد.

فتحها بسرعةٍ، فقرأ كلماتها كأنها تنزف دفئًا ودموعًا في آنٍ واحد:

كذبت على نفسي يا آسر... ظننت أن البعد سيطفئ ما في قلبي، لكنه زادني تعلقًا بك، لا أستطيع العيش دونك، ولن أقدر أن أبتعد بعد الآن.

أحبك، وسأظل أحبك ما حييت، وسأبقى إلى جوارك مهما تغيّر العالم من حولنا.

توقف آسر عن القراءة، أغلق الهاتف ببطءٍ، ووضع يده على صدره يشعر بخفقاتٍ لا يستطيع السيطرة عليها.

لم يكتب شيئًا بعدها، فقط جلس صامتًا ينظر إلى السماء، بينما ابتسامةٌ خفيفةٌ ترتسم على وجهه، ابتسامة رجلٍ حصل على ما انتظره طويلًا، لكنه لا يعرف إن كان ما ناله هديةً أم لعنة.

وفي صباح اليوم التالي، ارتدى آسر ملابسه استعدادًا للسفر، ربط حقيبته، وألقى نظرةً أخيرة على البيت قبل أن يغادر.

كانت الشمس تشرق ببطءٍ، والهواء يحمل رائحة المطر القديمة.

وحين مرّ على أطراف القرية، رآها – المرأة العجوز

جالسة عند الشجرة نفسها التي التقاها عندها أول مرة، ملفوفة بعباءتها السوداء، وعيناها اللامعتان تتابعانه وكأنها كانت بانتظاره.

اقترب منها بخطواتٍ بطيئة، وقال بصوتٍ متعب:

ــ لقد نجح ما أردتِ، أليس كذلك؟

ابتسمت العجوز، وقالت بهدوءٍ مريب:

ــ يمكنك السفر الآن يا آسر... لقد حصلت على ما تمنيت.

تجمد في مكانه، وقال:

ــ ولكن كيف فعلتِ كل هذا؟

ألم تقولي إن السحر يحتاج شيئًا من الشخص الآخر؟

كيف نجح دون أن تأخذِي منها شيئًا؟

أطرقت رأسها لحظة، ثم رفعت نظرها نحوه، ابتسامة غامضة ارتسمت على وجهها، وقالت بصوتٍ خافتٍ:

ــ لأن ما بينكما لم يكن يحتاج إلى شيءٍ يؤخذ... لقد كان موجودًا من البداية، في الدم ذاته.

تراجع آسر خطوةً إلى الوراء، حاجباه انعقدا بدهشة:

ــ ماذا تعنين؟

ردّت بهدوءٍ وهي ترفع يدها مشيرةً إلى الساعة التي كانت معه:

ــ تلك الساعة تخص والدك... ووالدك هو عمّها، يا آسر.

هي ليست غريبة عنك، بل أقرب إليك مما تظن.

حين صدقتَ في حبك، صدق السحر في الوصول إليها.

لقد تمّ لأن الدم نفسه يعرف طريقه... لا يحتاج إذنًا من أحد.

شعر آسر بدوارٍ خفيفٍ، نظره تاه في الفراغ، كأن كلّ ما حوله أصبح بلا معنى.

رفع عينيه نحوها وهمس بصوتٍ مبحوحٍ:

ــ إذا هكذا الامر ظننته مستحيل.

لكن العجوز اكتفت بابتسامةٍ غامضةٍ، ثم قالت وهي تنظر إلى الأفق البعيد:

ـ لا يوجد مستحيل حين يتدخل الدم والقدر.. كل ما في الأمر أنك استعجلت ما كان سيحدث في وقته.

ثم نهضت ببطءٍ، واختفت بين الأشجار كما لو أنها لم تكن هناك أصلًا، تاركةً آسر واقفًا في مكانه، عيناه معلقتان بالساعة التي باتت أثقل من أي وقتٍ مضى، وقلبه يزدحم بأسئلةٍ لم يجد لها جوابًا.

عاد آسر إلى المحطة بعد أيامٍ من الغياب، والليل يوشك أن يسدل ستاره على المكان.

كانت السماء الشتاء ملبدةً بغيومٍ داكنةٍ تحجب القمر، والهواء مشبعًا برائحة الزيت والحديد، كأن شيئًا في الجو ينتظر عودته منذ زمن.

دخل غرفته الصغيرة بخطواتٍ متثاقلة، ألقى حقيبته جانبًا، وجلس على الكرسي الخشبي الذي اعتاد الجلوس عليه كل مساء.

نظر إلى الطاولة، فوجد الدفتر القديم هناك ، في المكان نفسه

الذي تركه فيه، لكن الغلاف بدا أكثر عتمة، وكأن الظلال التصقت به من طول الانتظار.

مدّ يده نحوه ببطءٍ، فتح الغلاف، فانفتحت الصفحات وحدها كأنها تعرف طريقها، حتى توقفت عند صفحةٍ بيضاء، ثم بدأ الحبر يظهر ببطءٍ أمام عينيه، يتكوّن حرفًا بعد حرفٍ حتى صار جملةً واضحة:

ـ لماذا تأخرت عليّ؟

فرح آسر أنه يوجد شخص يهتم لغيابه، وبقي ينظر في الكلمات التي امامه.

لم يشعر بالخوف هذه المرة، بل بشيءٍ غريبٍ يشبه العتاب الدافئ، كأن الروح التي تسكن الدفتر كانت تنتظر عودته بصدقٍ حقيقي.

لم تمضِ لحظات حتى ظهرت الكلمات على الصفحة تحته مباشرة:

ـ لم أتأخر... كنت فقط أحاول أن أفهم ما يحدث حولي.

ابتسم آسر ابتسامة خفيفة، ثم مال بجسده للأمام، وسأل:

ـ من أنت؟ لم تخبرني باسمك بعد.

ساد صمت قصير، وكأن الهواء نفسه يفكر قبل أن يجيب، ثم بدأ الحبر يتحرك على الورق ببطءٍ، خطوط مستقيمة أولًا، ثم حروف واضحة ظهرت واحدة تلو الأخرى حتى اكتملت الكلمة:

ـ خالد.

قرأها آسر بصوتٍ خافتٍ، وهو يمرّر أصابعه على الحروف كأنها شيء ملموس.

ـ خالد... اسمٌ مألوف، كأنني سمعته من قبل هنا.

فردّ الدفتر بسطرٍ جديدٍ ظهر ببطءٍ، كأن صاحبه يبتسم من مكانٍ غير مرئي:

ـ ربما سمعتني دون أن تعرف، كنت هنا قبل أن تصل إلى هذه المحطة بوقتٍ طويل.

جلس آسر صامتًا، عيناه تتابعان الحبر الذي يجفّ على الورق، ثم كتب من جديد:

ـ إذًا أنت من ترك هذا الدفتر؟

ـ نعم، كان يوميّاتي، والآن أصبح وسيلتي للحديث بعد أن صمت كل شيء.

سكت آسر قليلاً، شعر بشيءٍ يشبه الاحترام لهذا الصوت الغائب، ثم كتب:

ـ وهل أنت مرتبط بهذه المحطة؟

ظهر الردّ سريعًا، بخطٍّ أكثر وضوحًا هذه المرة:

ـ لست مرتبطًا بالمكان... بل بما حدث فيه.

توقّف آسر قليلًا عند الجملة الأخيرة، شعر أن وراءها شيئًا لا يُقال، لكن بدلاً من الخوف، كان داخله فضولٌ هادئ، يدفعه لأن يعرف أكثر.

مرّر أصابعه على الورق، ثم كتب بخطٍّ مترددٍ:

ــ وماذا حدث يا خالد؟

مرّت ثوانٍ طويلة، بدا فيها الدفتر ساكنًا تمامًا، ثم بدأت الكلمات تظهر ببطء، كأنها تتكوّن من أنفاسٍ غير مرئية:

ــ هناك أشياء لا تُروى يا آسر، لأن مَن عاشها لم يبقَ ليحكيها.

تنهّد آسر، وأجاب وهو يبتسم بخفوتٍ:

ــ لكنك بقيت، أليس كذلك؟ أنت تحكيها لي الآن.

اختفى الحبر لحظة، ثم عاد يظهر بخطٍ مائلٍ هذه المرة:

ــ بقيت لأن شيئًا من الماضي لم يُغلق بعد... والمكان لا يهدأ ما دام في داخله ما لم يُفهم.

تأمل آسر الصفحة قليلًا، ثم رفع نظره نحو النافذة.

كانت الرياح تمرّ ببطء، تحمل معها صدى المحطة البعيدة وصوت الماكينات الثقيلة.

همس لنفسه:

ـ "بل ما لم يُغفر..."

عاد يكتب:

ـ خالد، إن كنتَ لا تستطيع الرحيل حتى يُغلق ما بدأ، فربما أستطيع أنا أن أساعدك.

ما الذي تريد أن أعرفه؟

ظهرت جملة جديدة بهدوءٍ، حروفها تتشكل كأنها ترتجف من ترددٍ قديم:

ـ أريدك أن تفهم أن ما حدث لي يشبه ما يحدث لك الآن... أن هناك أشياء تبدأ بحبٍّ بسيط، وتنتهي بما لا يُفسَّر.

توقف آسر عن الكتابة، نظر إلى الدفتر طويلًا، ثم ابتسم ابتسامةً صغيرةً لا تخلو من المرارة، وقال بصوتٍ خافتٍ:

ـ يبدو أن هذه المحطة تحمل أكثر من حديدٍ وأسمنت... تحمل أرواحًا لم تكتمل حكاياتها بعد.

وأغلق الدفتر ببطء، دون أن يعلم أن ما كُتب فيه تلك الليلة، سيكون بداية فصلٍ جديدٍ بينه وبين خالد...فصلٍ لن يميّز فيه أحدهما بين الماضي والحاضر.

في صباح اليوم التالي، بدأ آسر عمله كعادته، لكن شيئًا ما كان يشتّت انتباهه في كل لحظة. كانت يداه تتحرّكان بآليّةٍ وهو ينظر إلى هاتفه بين الحين والآخر، ينتظر رسالةً من ليان، أو ربما مجرّد إشعارٍ يذكّره بوجودها.

ورغم أن صخب الماكينات وضجيج المحطة عادةً ما يبتلع كل صوتٍ

داخلي، إلا أن اليوم بدا مختلفًا، كأن همساتها تلاحقه بين الأصوات المعدنية المتداخلة.

رفع الهاتف أخيرًا، وجد رسالتها وقد وصلت منذ دقائق:

ـ آسر... هل حدث معك شيء غريب مؤخرًا؟

توقّف عن الكتابة، وشعر ببرودةٍ خفيفةٍ تسري في أطرافه، ثم أجاب بعد تردّدٍ قصير:

ـ غريب؟ ماذا تعنين؟

لم تمر لحظات حتى جاء الردّ سريعًا، وكأنها كانت تنتظر جوابه بشغفٍ خفيّ:

ـ لا أعلم، لكنّني منذ أيام أراك في أحلامي، أسمع صوتك عندما أكون وحدي، كأنك قريبٌ منّي طوال الوقت... أحيانًا أظنّ أنني أراك حقًا.

ظلّ آسر يحدّق في الرسالة طويلًا، شعر بمزيجٍ من الارتباك والفرح والذنب في آنٍ واحد.

ثم كتب بهدوءٍ، محاولًا إخفاء اضطرابه خلف كلماتٍ متزنة:

ـ ربما لأننا نتحدث كثيرًا هذه الأيام، حين نفكّر بشخصٍ طويلًا، تبدأ أرواحنا في استدعائه حتى في المنام.

تأخّر ردّها قليلًا، ثم جاء على نحوٍ خافتٍ بدا كأنّه صدى فكرةٍ أكثر من كونه جملةً:

ـ ربما... لكنّني أشعر أنّ هناك شيئًا لا أفهمه بعد.

أغلق آسر الهاتف ببطء، وأسنده على الطاولة بجانبه، ثم نظر إلى الساعة في معصمه.

كانت العقارب تتحرّك بهدوءٍ، لكن الوقت نفسه بدا كأنه يلتفّ حوله في دائرةٍ لا تنتهي.

ابتسم ابتسامةً باهتة، وقال في نفسه:

ـ ليتك تعرفين كم هذا الشيء حقيقي، يا ليان... حقيقي أكثر مما تتخيلين

حين انتهى آسر من عمله مع غروب الشمس، كانت الماكينات قد هدأت، وصوت الحديد اختفى تمامًا، ولم يبقَ في المحطة غير صدى الريح يتسلّل بين الجدران القديمة. جلس على الكرسي الخشبيّ بجانب الطاولة التي يضع عليها الدفتر دائمًا، وأشعل مصباحه الصغير، ثم فتح الدفتر على الصفحة الأخيرة.

مرّر أصابعه على الورق، وكأنه يلمس شيئًا حيًّا، ثم كتب بخطٍّ واضحٍ ثابت:

ـ خالد، أريد أن أراك... لا أريد أن أسمعك عبر الكلمات بعد الآن.

صمت للحظة، حدّق في الصفحة، لم يظهر شيء.

عاد يكتب مرة أخرى:

ـ إن كنتَ حقًّا موجودًا، فلتظهر لي الآن.

الهواء من حوله تغيّر فجأة، صار أثقل، وكأن شيئًا غريبًا دخل المكان.

اهتزّ لهب المصباح، ثم انطفأ ببطءٍ، تاركًا الغرفة في عتمةٍ خفيفةٍ يتخللها ضوء القمر من النافذة.

في البداية ظنّ آسر أن الكهرباء انقطعت، لكنه رأى الظلّ يمتدّ على الجدار أمامه، ليس ظلّه، بل شكلٌ آخر يشبهه في الطول والهيئة، لكنه بلا ملامح.

ارتجف قليلاً، ثم قال بصوتٍ خافتٍ:

ـ خالد؟

لم يأتِ صوت، لكن الظلّ تحرّك ببطءٍ، كأنه يومئ برأسه.

أحسّ آسر بشيءٍ غريبٍ في صدره، مزيج من رهبةٍ وفضولٍ غامض، ثم قال:

ـ أردت فقط أن أراك... لأتأكد أنني لا أتكلم مع وهم.

تقدّم الظلّ خطوةً نحوه، وعندما صار قريبًا منه بدرجةٍ كافيةٍ ليكاد يلمس أطرافه، بدأ الهواء من حوله يبرد أكثر.

ظهر على صفحة الدفتر سطرٌ جديدٌ، كُتب كأنه خُطّ في اللحظة ذاتها:

ـ لست وهمًا يا آسر... أنت من استدعاني، والآن تراني كما أنا، لا كما يتصوّر العقل.

أمسك آسر الدفتر بيديه، يقرأ الكلمات بعينين لا ترمشان، بينما الظلّ أمامه بدأ يتحرّك بهدوءٍ نحو النافذة.

ثم كُتب سطرٌ آخر بخطٍّ أسرع وأقرب إلى الارتجاف:

ـ لا تخف... ما بيننا لم يبدأ بعد

في صباح اليوم التالي، نهض آسر باكرًا كعادته، ارتدى خوذته، ومضى نحو موقع العمل.

كانت الماكينات تدور بصوتها الرتيب، والدخان يتصاعد في الهواء،

لكن ذهنه كان في مكانٍ آخر تمامًا.

كلما توقف ليلتقط أنفاسه، أخرج هاتفه، يقرأ رسائل ليان القصيرة التي باتت تملأ يومه، ثم يعيد الهاتف إلى جيبه بابتسامةٍ خفيفةٍ يخبّئها عن زملائه.

جلس آسر قرب الخلاطة القديمة بعد انتهاء العمل، الليل يهبط ببطءٍ فوق المحطة، والهواء يعبق برائحة الحديد والعرق والزيت.

أشعل سيجارته، ثم أطلق زفرةً طويلةً كأنها تختصر يومًا بأكمله، وقبل أن يتنفس ثانية، جاءه الصوت الذي اعتاد سماعه في صمته:

ـ أراك شاردًا يا آسر، وكأنك تعمل بجسدك وعقلك في مكانٍ آخر.

التفت آسر ببطءٍ، لم يكن الصوت مخيفًا، بل مألوفًا... كأنه يخرج من جدارٍ يعرفه منذ زمن.

ابتسم ابتسامة باهتة وقال:

ـ لعلّك محق يا خالد، إنها ليست الشرود فقط... بل ما يسمّونه الناس حبًا.

ساد الصمت لوهلة، ثم ردّ خالد بنبرةٍ مترددةٍ تجمع بين الفضول والهدوء:

ـ الحب؟ هل هو من النوع الذي يُسعد صاحبه أم الذي يُتعبه فحالك الان لا يدل على أنه يُسعد صاحبه؟

ضحك آسر بخفةٍ حزينة وقال وهو ينظر نحو الأرض:

ـ إنه الحب الذي لا يُرى إلا من طرفٍ واحد، الذي يمنحك كل شيءٍ ولا يعيد لك شيئًا.

رفع آسر رأسه، نظر إلى الأفق المظلم ثم قال بصوتٍ منخفضٍ كأنه يخاف من نفسه:

ـ لم تكن تحبني يا خالد، كانت ترى فيّ شخصًا لا يجب أن يقترب...

وعندما فشلت في نسيانها، فعلت شيئًا لم أكن أظن أنني سأفعله يومًا.

اقترب ظلّ خالد من ضوء المصباح كأن حضوره ازداد ثقلًا في المكان، وقال:

ــ وماذا فعلت يا آسر؟

أطفأ آسر سيجارته بيده المرتجفة، ثم تمتم بنبرةٍ مكسورةٍ بين الندم واليقين:

ــ ذهبتُ إلى امرأةٍ تعرف أمورًا لا يفهمها الناس... أعطيتها ساعتي، وطلبتُ منها أن تجعلها تحبّني، فقط لتشعر بي كما شعرتُ بها.

لم أردْ أن أؤذيها... أردتُ فقط أن تتوقف تلك المسافة بيني وبينها.

خيم الصمت مجددًا، لم يعلُ سوى صوت الماكينات البعيدة وهي تدور كأنها تهمس بالحقيقة من بين التروس.

ثم قال خالد بنبرةٍ باردةٍ تحمل شيئًا من الحزن:

ـ السحر يا آسر لا يقرّب القلوب... بل يقيّدها. وما يُجبر على الحب لا يعرف الحب أصلًا.

أطرق آسر رأسه، أصابعه تعبث بساعته في صمتٍ، قبل أن يقول بخفوتٍ يكاد يُسمع:

ـ أعلم... لكني لم أعد أملك سوى هذه الطريقة.

ربما أردتُ أن أصدّق أن الحب يمكن أن يُصنع مثل الخرسانة، نمزج له شيئًا من الألم وشيئًا من الرجاء، فيتجمّد على شكلٍ لا ينكسر.

هزّ خالد رأسه، ثم قال بنبرةٍ هادئةٍ تشبه نهاية الحكمة:

ـ لا شيء يُبنى على السحر إلا وسينهدم، يا آسر. تذكّر هذا... فبعض الأبواب إن فُتحت، لا تُغلق بسهولة.

ظلّ آسر ينظر إليه طويلًا، ثم همس وهو يرفع عينيه نحو السماء:

ـ ربما فُتح الباب بالفعل... وربما فوات الأوان أغلقه عني إلى الأبد.

ساد الصمت بينهما قليلًا، لم يبقَ في المكان سوى صوت الهواء وهو يمرّ بين الهياكل الحديدية.

كان آسر يعبث بساعته، ينظر إلى انعكاس الضوء عليها بملامح مترددة، بينما ظلّ خالد واقفًا كظلٍّ ساكنٍ لا يزول.

ثم قال بصوتٍ هادئٍ، خالٍ من اللوم لكنه مشبع بالتأمل:

ـ آسر، أخبرني بشيءٍ واحد...

هل تفضّل أن تحبّ إنسانًا يحبّك كما أنت، أم تحبّ إنسانًا لا يريدك، فتجبره على أن يحبّك؟

رفع آسر نظره إليه، وصمت للحظةٍ طويلةٍ قبل أن يقول ببطء:

ـ أريد فقط أن أشعر أنني لم أخسرها تمامًا، أن تبقى جزءًا من حياتي ولو بطريقةٍ ناقصة.

ابتسم خالد بخفةٍ حزينةٍ، ثم أضاف بنبرةٍ أقرب إلى النصح:

ـ حالك الآن يشبه رجلاً يحاول أن يأخذ قطة إلى بيته، والقطّة لا

تريد الدخول.

قد يُغلق عليها الأبواب بإحكام، يمنعها من الهرب، يظن أنه بهذا يملكها...

لكنها ستقضي الليل كله تبحث عن مخرج، وحين تجد طريقها إلى الحرية، ستكره البيت، وتكره صاحبه، وتكره نفسها لأنها دخلت إليه يومًا.

أطرق آسر رأسه بصمتٍ، شعر أن الكلمات اخترقت شيئًا في داخله لم يجرؤ أحدٌ على لمسه من قبل.

قال بصوتٍ مبحوحٍ كأن اعترافًا قد أثقل صدره:

ــ ربما كنتُ ذلك الرجل يا خالد... الذي أغلق الباب دون أن يسأل القطة إن كانت تريد البقاء.

اقترب خالد ببطءٍ، ثم همس في أذنه بنبرةٍ خافتةٍ تشبه الريح حين تمرّ على الرماد:

ـ الحبّ لا يُؤخذ بالقوّة يا آسر...

إن لم يأتِ إليك طائعًا، فدع الريح تأخذه، لأنك إن أمسكت به قسرًا، سيترك في يدك ندبةً لا تزول.

بقي آسر صامتًا بعد ذلك، ينظر إلى الأرض المبتلّة تحت ضوء القمر، وفي داخله سؤالٌ واحدٌ ظلّ يلتفّ حول قلبه كالدخان:

هل كان ما فعله حبًا... أم أنانيّة غلفها الحنين؟

في تلك الليلة، وبعد أن تفرّق ضوء القمر بين السحب الرمادية، كان خالد قد تلاشى من أمام آسر بهدوءٍ كما اعتاد أن يفعل، تاركًا وراءه صدى كلماته يتردّد في ذهنه كجرسٍ بعيد.

عاد آسر إلى غرفته، ألقى خوذته على الطاولة، ثم جلس متعبًا، يتأمل الساعة التي لا تفارق معصمه.

كانت عقاربها لا تشير إلى الوقت فحسب، بل إلى ذنبه أيضًا.

في الجهة الأخرى من المدينة، كانت ليان جالسة في غرفتها، أمام المرآة.

لم تكن تعرف ما الذي يحدث لها، لكنها تشعر بشيءٍ غريبٍ يجتاحها كلما اقترب الليل.

في البداية، كانت ترى صورًا ضبابية في زوايا الغرفة، ثم صارت تسمع صوته في رأسها بوضوحٍ تام صوته هو، آسر.

كانت تستيقظ في منتصف الليل لتجد رسائله القديمة مفتوحة أمامها، رغم أنها لم تلمس الهاتف.

وعندما تغفو مجددًا، ترى نفسها تسير في طريقٍ مظلمٍ، في نهايته يقف آسر، يمدّ يده إليها ويقول بهدوء:

ـ تأخّرتِ كثيرًا يا ليان، كنتُ أنتظرك.

تستيقظ وهي تتنفس بصعوبةٍ، تضع يدها على صدرها، تشعر أن شيئًا ما يضغط على قلبها، لكنها لا تخاف، بل تشعر براحةٍ غريبةٍ

حين تفكر به.

حتى ملامحها تغيّرت قليلًا، نظرتها صارت ساكنة أكثر، وكأنها نصف يقظةٍ ونصف حلم.

وفي كل مرةٍ تنظر إلى صورتها في المرآة، تقول في نفسها:

ـ لماذا أشعر أني لم أعد أنا؟

ثم تبتسم بخفوتٍ دون أن تدري السبب.

أما آسر، فكان في اليوم التالي أثناء العمل، يسمع صدى كلمات خالد تدور في رأسه بلا توقف:

"الحب لا يُؤخذ بالقوة يا آسر..."

لكنه كان عاجزًا عن الندم، عاجزًا عن الرجوع، وكأن السحر لم يُقيد ليان وحدها... بل قيّده هو أيضًا.

مرت الأيام ببطءٍ، كأن الزمن نفسه صار متثاقل الخطى.

كان آسر يعمل بصمتٍ أغلب الوقت، ينجز مهامه بين ضجيج

الماكينات ورائحة الحديد، لكن عقله لم يكن هناك كان مع ليان.

كلما أخرج هاتفه، وجد منها رسالةً جديدة، كلماتها مفعمة بالحنين، دافئة على نحوٍ غريبٍ يكاد لا يُصدّق.

كانت تقول له في إحداها:

ـ "أشعر أنك قريبٌ منّي حتى عندما لا أراك، كأنك تملأ الهواء من حولي."

وكان يقرأها ببطءٍ، يبتسم بخفوتٍ لا يخلو من الذنب، ثم يغلق الهاتف وهو يتمتم لنفسه:

ـ ما كنت أريد أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

وفي المساء، حين تهدأ المحطة ويعمّ السكون، كان يجلس في زاويته المعتادة قرب السور، ينظر إلى القمر المنعكس فوق الخزان الكبير، حتى يسمع صوتًا خافتًا يأتي من خلفه، مألوفًا رغم استحالته.

ـ آسر... استدار ببطء، قلبه يخفق بقوةٍ، لكن لم يكن هناك أحد.

الصوت تلاشى، تاركًا خلفه أثرًا في الهواء يشبه الهمس.

جلس مجددًا، أخرج هاتفه، فتح محادثته مع ليان، ليجد أن رسالتها الأخيرة أُرسلت قبل دقائق فقط:

ـ "ناديتك بصوتي، هل سمعتني؟"

تجمّد في مكانه، أنفاسه اختنقت للحظةٍ، كتب لها بسرعةٍ وهو يحاول أن يبدو طبيعيًا:

ـ نعم... كأنك كنتِ هنا.

جاء الردّ بعد ثوانٍ،

ـ كنتُ هناك فعلًا، لا أدري كيف... لكني شعرت أني أقف قربك.

أسند آسر رأسه إلى الجدار، يحاول أن يُقنع نفسه أن ما يحدث مجرد صدفٍ غريبة، لكن إحساسًا غامضًا في صدره كان يهمس بالعكس أن السحر بدأ يربط بينهما، ليس في العاطفة فقط، بل في الوجود ذاته.

في تلك الليلة، لم يغمض له جفن.

كان يسمع أنفاسها في الصمت، ويرى ظلها كلما مرّ ضوء القمر على الحائط.

ولأول مرة، لم يشعر بالراحة التي كان يتمناها...

بل بخوفٍ هادئٍ لا يعرف سببه، خوفٍ من أن الحب الذي سعى إليه، بدأ يتحول إلى شيءٍ آخر لا يستطيع السيطرة عليه.

جلس آسر على حافة السرير، الهاتف بين يديه، يحدّق في الرسائل وكأنها مرآة لشعوره.

هي لم تكتب سوى كلمات قليلة، بسيطة، لكنها كانت كافية لتوقظ داخله مزيجًا من الدفء والارتباك.

ـ كنتُ هناك فعلًا...

مجرد سطر واحد، لكنه جعله يشعر بقربها بطريقة لم يعرفها من قبل.

حاول أن يرد، يكتب شيئًا يليق بالمشاعر التي بدأت تتسلل إلى قلبه، لكنه تراجع.

صوت خالد، روح الدفتر، بدا كظل يلمس عقله:

ـ هل تعتقد أن هذه الكلمات خرجت من قلبها؟ أم أن ما فعلته سابقًا جعلك تسمع ما تريد سماعه؟

أغمض آسر عينيه، ينفث نفسًا طويلًا.

عرف أنه مهما شعر، سيظل الصوت يطارده، يحذره، يربكه.

لكن في داخله، قرر شيئًا واحدًا: لن يدع الشك يمنعه من إحساسه الحقيقي، لن يفرّ من لحظة بشرية نادرة تطرق قلبه.

لم يردّ على كل كلمة، اكتفى بابتسامة هادئة، ورسالة قصيرة:

ـ وأنا شعرت بذلك أيضًا...ثم وضع الهاتف جانبًا، وأغلق دفتر .

***

استيقظتُ ذلك الصباح وأنا أشعر أن الليل لم يغادر رأسي بعد.

غسلت وجهي، ارتديت ملابسي، وخرجت إلى المحطة، أمشي بخطوات ثابتة، لكن داخلي كان ممتلئًا بشيء يشبه الدخان... يتجمع ولا يتلاشى.

كنت أظن أن صوت خالد سيختفي مع ضوء الشمس، لكنه لم يفعل.

كان صوته يسير بجانبي، كأن ظله امتد حتى صار أطول من ظلي.

ـ آسر... توقف.

تجمدتُ في مكاني، وضعت يدي على باب المحطة قبل أن أدفعه.

قلت بصوت منخفض بالكاد أسمعه:

ـ ماذا تريد الآن يا خالد؟

جاء صوته واضحًا، لا همسًا ولا خيالًا... بل حضور كامل، كأن روحه تقف خلف كتفي مباشرة:

ـ أريد شيئًا بسيطًا...ما رايك أن نتشارك الجسد.

شعرت بقلبي يهبط داخلي كحجر سقط في بئر عميق.

ـ ماذا؟!

ـ ماذا تقصد بأن نتشارك الجسد؟

ضحك ضحكة قصيرة، باردة...ثم قال:

ـ هناك طريقة... وجدتُها عندما كنت حيً قد بحثت عن كتاب رعب فظهر كتابٍ قديم لسحر وطريقة سيطرته على شياطين وجعلها خدم لك...وكتاب يسمّونه شمس المعارف.

فيه فصل يتحدث عن سيطرة الروح إلى جسد حي.

بلعت ريقي، شعرت أن الهواء في صدري صار ثقيلًا، ثم قلت:

ـ خالد... هذا كلام جنون، لا شيء من هذا حقيقي.

ردّ بنبرة صامتة، كأنها تأتي من داخل صدري وليس من خارجه:

ـ بل هو حقيقي أكثر مما تتصور.

أنت من فتح الباب... أنت من استدعاني... والآن يجب أن نكمّل الطريق.

أغمضت عيني للحظة، محاولًا استعادة نفسي.

قلت له:

ـ ماذا ! لم استعديك انا مجرد أن وجدت دفترك، وانا من بعدها عرفتك ولكن لِمَ تريد جسدي؟

ـ ماذا ينقصك؟

جاء صوته أشد هدوءًا... لكنه أعمق، وكأن كل كلمة فيه تحمل وزنًا:

ـ أريد أن أعيش من جديد يا آسر... أن أشعر... أن ألمس العالم... أن أكون أكثر من ظل.

سرت قشعريرة في ظهري.

وضعت يدي على صدري، كأنني أحاول حماية شيء داخلي:

ـ لا... مستحيل.

هذا جسدي... حياتي... لن أسمح لك.

سكت خالد لثوانٍ...

ثم قال جملة جعلتني أشعر بأن الأرض تحتي تحركت:

ـ إذن... سنرى كم ستصمد يا آسر.

فالروح حين تستيقظ... لا تعود تنام بسهولة.

فتحت باب المحطّة، وداخلي يعلم شيئًا واحدًا:

أن هذا اليوم لن يكون مثل أي يوم آخر.

وأن خالد... لن يتراجع.

مرّت الأيام ببطءٍ غريب، كأن الزمن نفسه صار يراقبني.

كنت أذهب إلى المحطة كل صباح، أعمل، أضحك مع الزملاء،

أتناول الغداء... لكن داخلي كان يعيش معركة لا يعرفها أحد.

خالد لم يعد مجرد صوت.

صار حضورًا... فكرة ثابتة... ظلًا لا يبتعد.

كل ليلة، قبل أن أنام، يهمس لي:

ـ آسر... أنت وحدك من يستطيع مساعدتي.

ـ أنت من فتح الباب. أكمله معي.

كنتُ أقاوم، أكرر لنفسي أن كل هذا وهم... لكن الحقيقة؟

كنت أشعر به... أشعر أنه، ليس مجرد خيال.

ومع كل يوم يمر، كان يقنعني أكثر، ليس بالعنف أو التهديد...

بل بالهدوء.

ـ شاركني لأشاركك...

ـ لن آخذ منك جسدك... فقط... مساحة صغيرة داخلك.

كنت أقاومه، أقول له:

ـ جسدي ليس منزلًا لتسكنه.

ـ لن يحدث هذا أبدًا.

لكنه كان يعرف كيف يدخل إلى أعماقي...

يعرف نقطة ضعفي الوحيدة:

"الخوف من الوحدة".

وفي أحد المساءات، بينما كنت في طريقي للمنزل، توقف صوته داخل صدري:

ـ آسر... اشتري الكتاب.

ـ آخر صفحة فيه... ستفهم منها ما أريده.

ليست طقوسًا... ليست كلمات... بل معنى فقط.

ترددتُ.

وقفتُ أمام مكتبة قديمة في السوق، مكتبة أعرفها منذ سنوات

لكنها لم تلفت نظري أبدًا إلا تلك الليلة.

يداي كانتا ترتجفان وأنا أطلب من الرجل:

ـ عندك... كتاب شمس المعارف؟

نظر إليّ الرجل طويلًا، نظرة لم أفهمها، ثم عاد بالكتاب دون كلمة.

كان ثقيلاً... كأنه يحمل شيئًا غير الورق.

دفعت الثمن ورحلت.

عندما وصلت غرفتي، جلست على حافة السرير، وضعت الكتاب أمامي، ولمسته بأطراف أصابعي... وشعرت بكهرباء خفيفة تسري في جلدي.

قال خالد بصوت أقرب إلى الدفء:

ـ افتحه... فقط افتحه يا آسر.

فعلت.

لم أقرأ كل شيء... لم أجرؤ.

لكنّ آخر صفحة... الصفحة التي تحدث عنها خالد... كانت خالية تقريبًا، إلا من جملة واحدة:

"الروح حين تجد جسدًا يقبلها... لا تهاجمه، بل تتعايش معه."

تجمدت.

قرأت السطر مرة... ثم مرتين... ثم خمسًا.

لم يكن فيه سحر... ولا طقوس... ولا أوامر، كان فكرة.

مجرد فكرة... تبدو بسيطة جدًا... ومع ذلك شعرت بأنها تُفتح بابًا داخليًا لم أعرفه من قبل.

سكتُّ طويلًا، ثم قلت بصوت خافت:

ـ خالد... إن تشاركنا... لن تكون أنت وحدك من يسكنني.

سأراك... وسترى عالمي... ستشعر بما أشعر... وإن تجاوزت حدودك... سأطردك.

سمعت أنفاسه لأول مرة... لا كصوت... بل كوجود.

ـ أعدك يا آسر... أعدك أني لن آخذ منك شيئًا... سأكون فقط... جزءًا منك.

أغمضت عيني، ثم قلت:

ـ حسنًا... فلنتشارك.

وللحظة واحدة فقط... شعرت بدفءٍ غريب ينتشر في صدري، ثم في كتفيّ، ثم في رأسي... دفء يشبه لمسة لم أعرف مصدرها.

لم يكن مؤلمًا... لكنه لم يكن طبيعيًا.

فتحت عيني ببطء... كان العالم حولي كما هو، لكن داخلي، لم يعد كما كان، أنا لم أعد وحدي.

استيقظتُ قبل المنبّه بثوانٍ، وكأن أحدًا ناداني باسمي من الداخل.

جلست على السرير، وضعت قدميّ على الأرض، وشعرت بشيء جديد...

شعور لا أعرفه...

كأن الهواء صار أثقل قليلًا، وكأن جسدي ليس تحت سيطرتي بالكامل، بل بالمشاركة.

لم يكن مؤلمًا... ولم يكن مريحًا تمامًا... كان... مختلفًا.

سمعت صوته، لكن ليس كما كان من قبل.

لم يكن يأتي من الخارج، ولا من فوق كتفي.

كان يأتي من نفس المكان الذي يخرج منه صوتي.

ـ صباح الخير يا آسر.

قلت دون أن أفتح فمي:

ـ خالد...؟

ـ نعم.. لا تقلق.

أشعر بكل شيء من مكانٍ بعيد، كأنني أجلس خلف ستارٍ شفاف.

وقفت أمام المرآة، حدّقت في عيوني.

كانت كما هي... لكن شيئًا صغيرًا فيها بدا كأنه يستمع معي.

ـ هل... هل أنت ترى ما أرى يا خالد؟

ـ أرى... وأشعر.. لكنني لست معك بالكامل.

فقط جزء ضئيل... كما اتفقنا.

تنفست ببطء، ارتديت ملابسي وذهبت إلى المحطة.

لكن منذ اللحظة التي خرجت فيها من الباب... بدأت أول علامة.

كنت أمشي وأفكّر في كلام خالد، وفجأة رأيت رجلاً يعبر الشارع.

وجوه الناس دائمًا مألوفة لي، لكن هذا الرجل... كان مجهولًا

تمامًا.

ومع ذلك، داخلي حدث شيء غريب.

خالد قال فجأة:

ـ انتبه... هذا الشخص يحمل حزنًا في صدره.

توقفت.

لم أكن أعرف الرجل.

هو مجرد عابر طريق لا ينظر إليّ حتى.

لكن خالد قال ذلك بيقين، كأنه يعرفه منذ زمن.

سألته:

ـ وكيف عرفت؟

ـ نحن الآن نتشارك يا آسر... وعندما ترى أنت الملامح... أرى أنا ما خلف الملامح.

لم أكن أفهم ما يعنيه خالد حين قال إنه يرى ما "أرى أنا ما خلف الملامح"، لكنني لم أرده أن يبدأ في تحليل الناس أو إقحامي في ما

لا يخصني.

لذلك قلت له بحزمٍ داخلي، وأنا أشدّ خطواتي نحو الألت:

ـ خالد... اسمعني جيدًا.

ـ لا تخبرني بشيء عن أحد.

ـ لا مشاعر، لا نوايا، لا أسرار.

ـ لستُ مهتمًا... ولا أريد أن أكون جزءًا من شيء لا يعنيني.

ساد صمتٌ قصير في داخلي، ثم قال بصوتٍ هادئ يشبه انسحابًا:

ـ كما تريد... آسر.

دخلت الألت، بدأ صوت الماكينات يملأ أذنيّ كالمعتاد، رائحة الزيوت، ضجيج الحديد، الحركة المستمرة... هذا هو عالمي الحقيقي.

عملي، يداي، الماكينات... الأشياء التي أفهمها.

لكن حتى وسط كل هذا، شعرت بشيء غريب... لم تعد أفكاري وحدي.

كل مرة أفكر في خطوة، في عمل، في تعديل بسيط... كان هناك ظلّ من فكرة أخرى تقف بجانبها.

كأن أحدًا يراقب عقلي من الصف الخلفي... ولا يتدخل، فقط يشاهد.

وأثناء عملي على إحدى القطع المعدنية، ظهر خاطر داخل رأسي...

ليس بصوت، بل كإحساس ناعم يتسلل بين أفكاري:

ـ ماذا لو جرّبنا الرسم يا آسر؟

ـ ربما تكون جيدًا فيه.

تجمدت لحظة، وضربت الشرارة الحديد، لم أرفع رأسي، فقط قلت داخليًا:

ـ خالد...

أنا الآن في عملي، ليس الوقت لهذا.

جاء رده هادئًا، كأنه يبتسم:

ـ أعلم.. لم أرد إلا مشاركة فكرة عابرة.

هنا فهمت أخيرًا... التشارك ليس سيطرة، وليس اقتحامًا، إنه يشبه وجود مقعد إضافي في داخلي، يجلس عليه خالد... يراقب، يهمس، ويترك لي المقود.

لكن منتصف النهار حمل أول علامة على أن الأمور لن تبقى ثابتة... وبينما أنظّم القطع المعدنية على الطاولة، وأمسح الزيت عن يديّ بقطعة قماش، سمعت نفسي أقول في داخلي، ليس له... بل لنفسي:

هذا الوضع لن يستمر هكذا... سيأتي وقت يريد خالد فيه أكثر.

ولأول مرة منذ بدأ التشارك، لم أنتظر أن يبدأ خالد الحديث... بل أنا من التفت إليه داخليًا،

وأطلقت العرض الذي لم أتوقع أن أسمعه من فمي:

ـ خالد... ما رأيك في اتفاقٍ جديد؟

ـ سأمنحك ما يناسبك... وما يريحني أيضًا.

سكت خالد، كأن الزمن نفسه توقف ليستمع.

قلت:

ـ في العمل... أنا وحدي، عقلي، جسدي، أفكاري... لا أريد أي تدخل.

ـ أما بعد العمل...سأترك لك الجسد بالكامل، كلّئ. تتحكم أنت...

وأكون أنا مجرد ظلّ يراقب، كما تفعل الآن.

شعرت بنبضة قوية في صدري... نبضة ليست لي وحدي.

خالد لم يتكلم فورًا.

ظلّ ساكتًا لثوانٍ طويلة، حتى كدت أسمع صدري يتنفس بيننا.

ثم قال بصوتٍ لم أسمعه منه من قبل... صوت هادئ... لكنه عميق:

ـ وهل أنت متأكد يا آسر؟

ـ أن تتركني أتنفس من خلالك... وحدي؟

ـ في وقتٍ أنت تكون فيه مجرد راصد، بلعت ريقي، ونظرت إلى الماكينة التي أمامي، كأن الحديد يمنحني ثباتًا لا أجده في نفسي...

ـ نعم، لأنني... أحتاج أن أميز بيني... وبينك، وتركك تمتلك الجسد بعد العمل... سيعطيني المسافة التي أحتاجها.

ـ شعرت بدفءٍ داخلي غريب... كأن موافقته جاءت قبل أن ينطق.

ثم قال:

ـ إذن... اتفقنا.

وتلك اللحظة... كانت البداية الحقيقية، البداية التي ستجعلني لاحقًا أسأل نفسي:

هل كان الاتفاق إنقاذًا... أم انهيارًا بدأ بصوتٍ هادئ؟

اقتربت نهاية الدوام، وكانت الضوضاء تملأ الموقع كالعادة. تقدّم آسر نحو الميكسر الكبير الذي طالته الخرسانة اليابسة، وكان دوره أن يقوم بتكسير ما تبقّى في داخله. وقف بجانبه صديقه، يتفحّصان حجم العمل.

كانت الخرسانة كثيرة، ملتصقة بالجدران المعدنية ككتل صلبة تحتاج وقتًا وجهدًا.

وبينما كان آسر يستعدّ لرفع المطرقة، تسلّل إلى داخله ذلك الهمس المألوف... لم يكن صوتًا كاملًا، بل فكرة تُلقى كأن شخصًا يقف خلفه:

ـ أخبره أن يتركك وحدك... هذا العمل لك وحدك.

لم يتفاجأ آسر هذه المرة.

جلسة الاتفاق التي حدثت بينه وبين خالد جعلت الأمور أوضح:

ساعات العمل ملك لآسر وحده... وما بعد انتهاء العمل، للجسد قانون آخر.

ومع ذلك، شعر آسر أنّ خالد يريد التدخل الآن... قبل أن ينتهي الدوام بدقائق.

قال آسر دون أن يحرّك شفتيه:

ــ خالد... هذا ما زال وقتي.

ــ أعلم. لكن دعني نجرب شيئًا... اطلب منه أن يغادر فقط.

نظر إليه صديقه باستغراب وقال:

ــ لكنه كثير يا آسر... ألن تحتاج مساعدة؟

ــ لا، سأتمكّن منه. اذهب أنت.

تردد صديقه قليلًا، ثم خرج من المكسر.

وبمجرّد أن ابتعد عنه خطوات، شعر آسر بتغيّر غريب...

انقباض خفيف في صدره، رعشة تمرّ في أطرافه، وكأن يده لم تعد ملكه تمامًا.

عندها جاء همس خالد، واضحًا وقريبًا:

ـ الآن... حان دوري.

ولم يمنحه لحظة واحدة.

انسكبت قوّة غريبة في جسد آسر، كأن عضلاته أصبحت أخفّ، أسرع، وأقوى مما عهد نفسه.

رفع المطرقة... ثم هوى بها.

كانت الضربة كافية لإسقاط كتلة كبيرة من الخرسانة وكأنها لم تكن صلبة.

تتابعت الضربات بدقّة وسرعة لا تشبه طبيعة البشر، وكل ضربة كانت تزيل جزءًا من الخرسانة كأن المعدن يطردها.

لم تمضِ **لحظات معدودة** حتى أصبح المكسر نظيفًا تمامًا.

وقف آسر يلهث قليلًا، لا من التعب... بل من الدهشة.

عاد خالد إلى الخلف، إلى مقعده الهادئ في عمق الجسد، وكأن شيئًا لم يحدث.

ـ هكذا يكون العمل المشترك يا آسر.

تأمل آسر المكسر الخالي تمامًا، ثم شعر بشيء واحد يطرق ذهنه بقوّة:

خالد لا يسكن جسده فقط.

خالد **يستخدمه**.

والسؤال الذي لم يجد له جوابًا هو:

إلى أين سيصل هذا التشارك الذي قبله... دون أن يعرف ثمنه؟

كانت الشمس قد بدأت تميل نحو الغروب، وصوت صفّارات الشاحنات يتلاشى تدريجيًا مع إغلاق العمال للموقع. أمسك آسر بزجاجة الماء، شرب قليلاً، ومسح جبينه بينما كان صديقه يقترب منه من جديد، مدهوشًا من رؤية المكسر وقد أصبح نظيفًا بالكامل.

ــ يا رجل... كيف فعلت هذا وحدك؟

ــ فقط... توفيق. العمل سار أسرع مما توقعت.

أومأ صديقه دون أن يجد تفسيرًا، لكنه لم يُطِل الحديث، فغادر نحو غرفة الاستراحة. بقي آسر واقفًا لدقائق، يشعر بأن جسده عاد ثقيلًا قليلًا، كأن القوة التي كانت فيه قبل لحظات قد سُحبت برفق.

في داخله، ارتفع صوت خالد وكأنه ينفض الغبار عن يديه:

ــ هذا مجرّد جزء بسيط يا آسر. يمكنك فعل ما هو أعظم إن منحتني مساحة أكبر.

تنفّس آسر بعمق، ثم قال في داخله:

ـ أنت قلت: ما بعد العمل لك... لكن أثناء العمل لي وحدي. لا أريد مشاكل.

ـ ولم أتجاوز الاتفاق... سألتك، وأنت وافقت. ثم إنني لم أؤذِك. أنت ترى النتيجة.

نظر آسر إلى المكسر مجددًا... كان المشهد نفسه يطرح سؤالًا لا يريد الإجابة عنه:

هل أنا أستفيد... أم أُستَخدم؟

خرج من الموقع متجهًا نحو غرفته الصغيرة داخل السكن، الطريق مغبرّ والهواء بارد، لكن عقله كان أكثر ازدحامًا من الشارع. كل خطوة كانت تحمل شعورين متناقضين: قوة غريبة... وقلق لا يريد الاعتراف به.

دخل غرفته، أغلق الباب، جلس على السرير، وترك جسده يسترخي بعد يوم طويل. لم تمر دقيقة حتى ظهر صوت خالد، هذه المرة أكثر وضوحًا... لا كهمس، بل كحديث يجري إلى جواره:

ـ آسر... الآن وقتي.

لم يقاوم. الاتفاق واضح.

أغمض عينيه، وقال:

ـ خذ جسدك... لكن تذكّر شيئًا: أنا لا أريد إيذاء أحد. ولا أريد أن أفقد نفسي.

شعر آسر بانسحاب وعيه إلى الخلف، كأنه يجلس في مقعد خلفي داخل جسده.

ثم تحرّك جسده وحده... بهدوء.

وقف أمام المرآة.

حدّق خالد من خلالها.

المشهد كان غريبًا لآسر، لأن تعابير وجهه لم تكن تعابيره... نظرة العين لم تكن نظرته... وكأن إنسانًا آخر يستعير ملامحه.

رفع خالد يد آسر ببطء، وكأنه يتفقدها، ثم قال:

ــ العيش داخل الجسد... مختلف تمامًا عن مراقبته.

سكت لحظة، ثم أضاف:

ــ لكن لا تقلق... لن آخذ شيئًا منك. أنا فقط... أشاركك.

سأل آسر من داخل ذهنه:

ــ ولماذا؟ ما الذي يدفع روحًا ميتة إلى أن تعيش معي؟

ــ لأنك الوحيد الذي فتح الباب... والوحيد الذي أستطيع أن أثق به.

عمّ الصمت بينهما...

لا خوف، ولا طمأنينة... شيء بينهما.

ثم فجأة... انتفض جسد آسر قليلاً، وكأن خالد انسحب فجأة من السيطرة.

ـ يكفي اليوم.

عاد الصوت إلى مكانه العميق، تاركًا آسر ليستعيد التحكم ببطء.

جلس آسر على السرير مجددًا، واضعًا يده على صدره، يحاول فهم ما حدث.

كانت تلك أول ليلة يترك فيها جسده لروح سكنت كتابًا... لكنها بالتأكيد... لن تكون الأخيرة.

في تلك الليلة، جلس آسر في غرفته متكئًا إلى الحائط، والضوء الخافت يتسلل من نافذة صغيرة. كان يشعر أن شيئًا ما يتغيّر في داخله، ليس فقط وجود خالد... بل طبيعة العلاقة بينهما.

ظهر صوت خالد بوضوحٍ لم يعهده من قبل:

ـ آسر... نحتاج إلى اتفاقٍ جديد.

رفع آسر رأسه قليلًا وقال في داخله:

ـ وماذا تريد هذه المرة؟

ـ نصف الجسد لي... ونصفه لك.

في وقت عملي أكون أنا... وفي وقتك تكون أنت.

أغمض آسر عينيه متوجسًا:

ـ نصف الجسد؟ وماذا سأحصل أنا؟

تردد الصوت قليلًا... ثم قال:

ـ سأعطيك شيئًا لا يستطيع بشر أن يمنحه لك... حين أدخل أنا جسدك، وتنتقل أنت إلى عالم الوعي الخافت... سأسمح لك بالذهاب إلى الشخص الذي تحبه.

إلى عالم يشبه الحلم... عالم تُخلق فيه اللحظة من شوقك.

سترى من تحب، وتعيش معها كما تشاء... دون خوف، دون قيود، دون واقع.

ارتجف قلب آسر للحظة... كأنه سمع وعدًا لم يتخيله يومًا.

ــ وهل تستطيع فعل ذلك؟

ــ أوافقك على اتفاقٍ لا أستطيع نقضه... فإن لم أفِ به، لك الحق بطردي من جسدك إلى الأبد.

سكت آسر طويلًا... ثم قال أخيرًا:

ــ أوافق.

مرّت الأيام التالية بعادية ظاهريًا، لكن داخله كان مزدحمًا، اقترب موعد التسليم اليومي للسيطرة... لحظة أصبح لها طابع غريب يشبه الطقوس.

كان آسر في العمل، يقف أمام المكسر الضخم المليء بالخرسانة المتصلّبة. وقف صديقه بجواره وقال بضجر:

ــ هذا هياخد وقت طويل النهارده.

لكن صوت خالد همس في عقل آسر:

ــ أخبره أن يذهب... ودعني أكمل.

قال آسر لصديقه بثقة:

ــ اذهب أنت، سأتولى الأمر وحدي.

رمقه صديقه بعدم تصديق، لكنه كان مرهقًا فوافق وغادر.

وفور ابتعاده... قال خالد:

ــ هل أنت مستعد يا آسر؟

ــ افعل ما تريد.

وفجأة... شعر آسر باهتزاز داخلي.

وعيه تراجع للخلف... وكأن بابًا انفتح في الظلام.

سيطر خالد على الجسد كمن يرتدي قفازًا جديدًا.

وفي ثوانٍ قليلة... كان ما يحتاج ساعة كاملة قد انتهى.

الخرسانة تكسرّت بسرعة غير بشرية، والمِكسر أصبح نظيفًا تمامًا.

ثم قال خالد:

ـ الآن... دورك.

لم يشعر آسر بجسده بعد ذلك... شعر فقط بانزلاق، سقوط لطيف بلا ألم، كأنه يغوص في ضوءٍ ناعم.

وحين فتح عينيه...وجد نفسه في مكان يعرفه... حديقة صغيرة، ضوء المساء، نسيم هادئ... وخطوات ناعمة تقترب.

كانت **ليان**.

لكن ليست فتاة متعبة من الحياة... ولا مشغولة... ولا مترددة.

كانت كما يتخيلها قلبه فقط:

هادئة، مبتسمة، تنظر إليه وكأنه موطنها الأول.

اقتربت وقالت بصوت رقيق يشبه الحلم:

ــ تأخرت اليوم يا آسر..ابتسم دون أن يعي كيف خرجت ابتسامته، وقال:

ــ كنت أبحث عنك... ويبدو أنني وصلت أخيرًا.

جلست بجانبه، وأمسكت يده كأنها تفعل ذلك كل يوم.

لا خوف، لا تردد، لا مسافات بينهما.

عالم لا وعي... عالم لا يتحكم فيه أحد إلا قلبه.

وهناك... عاش آسر أجمل لحظاته معها، بينما خالد في العالم الحقيقي يواصل السيطرة على الجسد دون أن يكسر الاتفاق.

في العالم الواقعي، كان الجسد الذي تركه آسر أمام المكسر الآن تحت سيطرة خالد بالكامل.

قفزت قوة غريبة في جسد آسر، شعوره بالأذرع، الساقين، كل حركة كانت خاضعة لعقل آخر. لم يعد جسده ملكًا له، بل أداة لخالد، الذي بدأ يتحرك بثقة غريبة، يعرف ما يريد ويعلم حدود ما يمكن فعله.

رفع خالد المطرقة بسرعة مذهلة، ولم يمض وقت طويل حتى تكسر كل ما تبقى من الخرسانة التي كان من المفترض أن يستغرق تكسيرها ساعات طويلة. كانت الضربات دقيقة، قوية، بلا تردد، وكأن جسد آسر امتدادٌ لقدرات خالد الخاصة.

ابتسم خالد، بصمت، ثم بدأ يتحرك في الألت: أدار الصمامات، عدّل الأجهزة، نقل بعض الأدوات من مكانها، وأعاد ترتيب الخرسانة المتبقية في الموقع، كل شيء كان يتم بسرعة وكفاءة تفوق قدرة البشر العاديين.

لكن لم يكن الهدف مجرد إنهاء العمل... كان خالد يختبر الجسد، يستكشف حدوده، يحاول معرفة مدى تجاوبه مع أوامره، مدى قوة العضلات، سرعة التفاعل، ثقل اليدين... كل شيء كان له حسابه الخاص.

وفي لحظة قصيرة، توقف خالد عن العمل.

جلس لحظة يتأمل جسد آسر، كمن يقيم الأرض التي يمشي عليها.

همس داخليًا، كأنه يبتسم:

ـ كل شيء تحت السيطرة... وأنت في عالمك الآن، آسر.

لم يلمس جسده بعد ذلك، بل انتقل إلى مراقبة المكان، يحرك اليدين برفق أحيانًا، يتأكد من أن كل شيء نظيف ومرتب، دون أن يترك أثرًا على الأجزاء التي تركها آسر مسبقًا.

كان الأمر كله اختبارًا... تدريبًا لخالد على الجسد، وتحضيرًا لما سيأتي لاحقًا.

وعلى الرغم من السيطرة المطلقة، كان هناك احترام صامت للاتفاق: لن يعبث بما لا يسمح له به... ولن يتجاوز حدود القوة المتفق عليها.

وبينما كان خالد ينظر حوله، شعر بشيء يشبه الترقب... كما لو أن جسد آسر كان يختبره، ويراقبه هو الآخر.

وهكذا، بدأ خالد في الجسد الحقيقي، يجرب كل حركة، كل قوة، كل إمكانات... بينما آسر يعيش في عالمه مع ليان، بلا خوف، بلا قيود، بلا حدود

عندما فتحت عينيّ، لم أعد في الغرفة، ولا في الألت، ولا في صخب المحطة.

كنتُ أقف في حديقة واسعة، ضوء المساء ينسكب كالحرير بين الأشجار، والهواء يحمل نسيمًا عذبًا، يمسّ وجهي برفق.

كان كل شيء يبدو حيًّا... أكثر من الواقع.

الألوان كانت أعمق، الأصوات أكثر وضوحًا، والهواء نفسه كان مشبعًا بشيء... بشعور مألوف، يهمس في صدري: **أنت حر هنا.**

ثم رأيتها.

ليان، تقف بعيدًا قليلًا، تنظر إليّ بابتسامة هادئة، لا خوف فيها، ولا تردد، ولا شيء من القيود التي يعرفها العالم الحقيقي.

خطواتها كانت خفيفة، رشيقة، وكأن الأرض نفسها تستجيب لها.

اقتربت مني، ولم يكن بيننا حاجز.

ــ آسر... أخيرًا وصلت.

صوتها... كان كما أحلم به، لكن أعمق، أكثر حميمية.

ــ أكنت بحث عنك... هنا... في هذا المكان.

مدّت يدها، أمسك بيدي، ولم أشعر بأي فاصل بيننا.

كل شيء بدا طبيعيًا، وكأننا دائمًا هنا... كأن هذا العالم صنع لنا فقط.

جلست بجانبها على عشب ناعم، كل زهرة حولنا كانت نابضة بالحياة.

ــ هنا... لا خوف. لا قيود. كل شيء كما تريد.

ابتسمت، ولم تبتعد، بل جلست بقربي، تجعل كل شيء يبدو ممكنًا، كل شعور حقيقيًا.

كان بإمكاني أن ألمس يدها، أن أرى كل تفصيل في عينيها، أن أسمع ضحكتها بلا أي حاجز.

حتى صوت قلبي كان يتماشى مع نبض قلبها.

كل ثانية كانت تشبه حياة كاملة... حياة لم نتمكن من عيشها في الواقع.

ــ آسر... أخبرني... هل تشعر بذلك؟

ــ أشعر... كل شيء يبدو حقيقيًا أكثر من أي وقت مضى.

ابتسمت ليان، وجلست أصغي إليها، وأستمع لكل كلمة، لكل همسة، وكأن الزمن توقف فقط لنا.

هنا... في عالم اللاوعي، يمكنني أن أعيش معها كل ما لم أستطع في الواقع، أن أتنفس حبها دون قيود، وأضحك معها، وأحكي لها كل شيء لم أجرؤ على قوله في العالم الحقيقي.

لكن حتى مع كل هذا، كان في داخلي شعور خافت...

شعور بأن هذا العالم، مهما بدا كاملًا، ليس عالمي الحقيقي.

أنني هنا... لكن جسدي الآخر في الواقع، تحت سيطرة خالد.

ابتسمت ليان مرة أخرى، وكأنها تقرأ قلقي:

ـ لا تقلق، آسر... هنا نحن معًا، ولا شيء يستطيع أن يفصلنا.

جلستُ بجانبها، وأغمضت عينيّ... دعوت نفسي أن أحتفظ بكل لحظة، بكل لمسة، بكل نظرة.

وفي تلك اللحظة، شعرت أن الوقت توقف... وأن الحب الذي طالما حلمت به أصبح حقيقيًا... أكثر من أي عالم، أكثر من أي حقيقة.

كنتُ أمشي معها بين الأشجار التي تتبدّل ألوانها بلطف كلما مرّت بجانبها، وكأن المكان يحبّها... أو يعرفها قبل أن تأتي.

ليان كانت تتصرف ببساطة، دون ارتباك أو أسئلة، وكأن هذا العالم ليس غريبًا عليها كما هو غريب عليّ.

في كل صباح من هذا المكان، كانت تجلس مقابلي، تحدّق في وجهي بسكينة وتقول:

ـ هل أنت مرتاح هنا يا آسر؟

أهز رأسي بابتسامة هادئة.

ـ أكثر مما تتصورين.

كانت تضحك بخفة، ثم تضع يدها على العشب وتقول:

ـ هذا العالم... يشبه قلبك، صافيًا لكنه يخفي أشياء لا يعرف كيف يبوح بها.

هذه الجملة... جعلتني أصمت.

كأن ليان ترى ما لا أراه.

أو كأنها انعكاسٌ لأعمق جزءٍ في داخلي.

نجلس طويلًا، نتحدث عن أشياء بسيطة:

ذكريات المدرسة، خوفها من المستقبل، أحلامي التي لم أحققها، الأشياء التي تمنّيت أن أقولها لها يومًا ولم أجرؤ.

– لا يوجد جدار بيني وبينها هنا.

– لا عائلة، لا مجتمع، لا خوف، لا خجل.

– كانت حرّة... وأنا كنتُ حرًّا معها.

وفي المساء ... إن جاز أن نسميه مساءً ... كنا نتمشّى بجوار جدول ماء صافٍ، مياهه تعكس السماء التي تتغير حسب شعورنا.

أحيانًا تكون بنفسجية هادئة...وأحيانًا مضاءة بنجوم لا تنطفئ.

وفي إحدى اللحظات... نظرت ليان إليّ نظرة لم أفهمها.

نظرة عميقة... كأنها تسأل دون كلام:

ـ لماذا أنت هنا معي؟

ـ ولماذا أشعر وكأنك تبحث عن شيء؟

فتحتُ فمي لأجيب... لكن قبل أن أتفوّه بشيء، شعرت برعشة خفيفة في جسدي... ليست هنا، بل في العالم الآخر.

كأن شيئًا هناك يتغير...

كأن خالد بدأ يفعل شيئًا، أو يختبر حدود السيطرة.

ارتجف المشهد لحظة.

اختفت ألوان السماء لثانية واحدة فقط، ثم عادت.

رفعت ليان يدها تلمس كتفي برفق.

ـ ما بك؟

أغمضت عينيّ، أحاول التركيز على وجودي هنا.

ـ لا شيء... مجرد شعور خفيف.

ابتسمت، ثم اقتربت خطوة:

ـ لا تفكر في أي شيء يؤلمك، هنا... أنت معي، وهذا يكفي.

شعرتُ أن الكلمات تُسكّن قلبي، تُثبّته، تمنعه من الانشطار بين عالمين.

جلستُ بجانبها، ورأسي يميل فوق كتفها.

لم أُرد أن أسأل... لم أُرد أن أفسد اللحظة.

كل ما أردته... أن أبقى هنا، معها، في هذا الهدوء الذي يشبه حلمًا لا يُفسد.

لكن... في أعماقي، كان سؤال خافت يتحرك:

– هل هذا العالم... حلم أعيشه؟

أم هو شيء أكبر... شيء صنعته روحي، أم صنعه اتفاقي مع خالد؟

ليان لم تعطني جوابًا.

لكن وجودها كان يكفي ليجعلني أبقى.

وهكذا... استمر عالم اللاوعي في التكوّن حولنا، وأنا أعيش معها أجمل أيام لا أستطيع أن أحصل عليها في الواقع...بينما خالد...في العالم الآخر... بدأ يستعد لشيء أكبر مما توقّعته.

لم أعد أعرف إن كان هذا المكان جزءًا من ذاكرتي... أم انعكاسًا لرغبةٍ دفينة... أم صدىً لاتفاقي مع خالد.

كل ما كنتُ أعلمه هو أن وجود ليان هنا، في هذا العالم الهادئ، جعلني أنسى الأسئلة.

كانت تمشي بمحاذاة البحر، بثوبٍ أبيض يلامس الماء، والسماء فوقنا تتلوّن بلون غروبٍ لا ينتهي.

نظرت إليّ تلك النظرة التي لا تحدث في يقظة البشر، وقالت بصوتٍ خافت:

ـ لماذا تبدو كأنك تخاف من هذا المكان؟

لم أُجِب.

لا لأنّي لا أعرف، بل لأن الجواب نفسه كان يخيفني.

– هل هذا العالم نعمة؟

– أم فخّ؟

– أم حلمًا طويلًا، صنعته روحي لأهرب من واقعي؟

– أم عالمًا شكّله خالد من قدرته الجديدة داخل عقلي؟

ليان لم تُجب.

لكنها اقتربت، وضعت يدها على صدري، وقالت بصوتٍ يشبه النسيم:

ـ أحيانًا... الجميل لا يكون خطرًا يا آسر.

كلماتها هدّأت شيئًا في داخلي، فأرخيت رأسي قليلًا، وسمحت للبحر أن يأخذني بصوته.

وهكذا... بدأت الأيام تتعاقب هنا بلا زمن.

كنت أمشي معها، أسمع ضحكتها، أستمع لحكاياتها كما لو أننا نعيش حياة كاملة لا يراها أحد سواي.

كنت أحصل هنا على لحظات لا يمكنني أن أحصل عليها في الواقع... لحظات هادئة، نقيّة، بلا خوف ولا تردد ولا عيون تراقب.

لكن خلف كل هذا الهدوء... بدأ شيء يتغيّر.

في العالم الآخر... في جسدي... كان خالد يستعد لشيء أكبر مما توقّعت.

كنت أشعر أحيانًا باهتزازٍ خافت، كصدى يأتي من بعيد، كأن العالم الحقيقي يطرق على جدران هذا العالم ليذكّرني بوجوده.

وأدركت شيئًا خطيرًا:

إذا كان خالد يستطيع بناء عالم داخل عقلي... فقد أصبح قادرًا أيضًا على تغيير الواقع الذي يقف جسدي فيه.

وما كان يحدث هناك... كان يقترب شيئًا فشيئًا من الانفجار.

عاد الوعي إليّ دفعةً واحدة... كأن أحدهم فتح بابًا بين عالمين.

تنفّستُ بعمق، أحسست بثقل الجسد يعود لي، وابتعد ظلّ خالد إلى الخلف، مراقبًا فقط.

كنت أعمل في الموقع، الشمس فوق رأسي، وصوت الماكينات يملأ المكان.

كل شيء طبيعي... أو هكذا ظننته.

أمسكتُ الخرطوم وبدأت أرشّ بقايا الخرسانة الملتصقة بالميكسر، وقلت في داخلي:

ــ دوري الآن يا خالد... لا تتدخل.

سمعته يردّ بنبرةٍ هادئة:

ــ هذه المرة لن أتدخل... افعل ما تشاء.

ابتسمتُ قليلًا، وواصلت عملي.

لكن قبل أن أرفع يدي مرة أخرى...

اهتزّ الهاتف في جيبي.

نظرت إلى الشاشة.

رقم **أبي**.

تجمّدت.

والدي لا يتصل إلا لسببٍ كبير... كبير جدًا.

رددت بسرعة:

ـ م.مرحبا... يا أبي؟

جاء صوته مختلفًا.

مكسورًا... غاضبًا... وكأنه يحاول منع نفسه من الصراخ:

ـ لقد خيّبتَ ظنّي بك يا آسر.

فاض قلبي بالخوف.

سألتُه بثباتٍ مزيف:

ــ ماذا حدث؟ لماذا تقول هذا؟

صمت لثانيتين... ثانيتين كسرتا ظهري.

ثم قال الجملة التي جعلت جسدي يرتعش من الداخل:

ــ الشيخ الذي جلبته أمّ ليان... قال إنك أنت من فعلتَ لها السحر.

سقط الخرطوم من يدي.

توقّف كل شيء حولي... صوت الماكينات... حرارة الشمس... حتى الهواء.

ــ ماذا...؟!

– أنا؟!

تابع أبي بصوتٍ يختلط بالغضب والخذلان:

ـ قال إن اسمكَ كان موجودًا... وإنك استخدمت شيئًا من أثرها...

وإن ليان تعاني بسبب ما فعلته.

لم أجد كلمة أردّ بها.

لم أستوعب.

كيف عرفوا؟

كيف وصلوا لاسمي؟

كيف...؟

وفجأة... سمعت ضحكة خفيفة من داخلي.

ضحكة خالد.

همس لي:

ـ ألم أقل لك إن اللعب بالسحر لا ينتهي بسهولة؟

لكن همسه لم يكن هو الأشد...الأشد كان صوت أبي وهو يقول:

ـ سأقول لك كلمة واحدة... **اصبحت عارٌ علي أنت بعد ما فعلته**

.

ثم أغلق الهاتف.

وبقيت أنا... أتنفس بصعوبة... يداي ترتجفان... وصدري ينكمش كأنه يريد السقوط أرضًا.

– لم أستطع الحركة.

– لم أستطع التفكير.

كل ما استطعت قوله لنفسي:

ـ انتهى...كل شيء انتهى.

خالد قال بهدوءٍ قاتل:

ـ لا... لم ينتهِ. ما زال لدينا الكثير لنفعله... يا شريكي.

ووقفتُ هناك، بين الخرسانة والغبار... بين صوت أبي الذي كسرني...

وصوت خالد الذي يجرني إلى هاوية جديدة...هبطتُ من فوق

المحطة ببطء، وذراعاي ترتجفان تحت ثقل ما سمعته منذ لحظات.

كان هاتفي ما يزال مفتوحًا على مكالمةٍ انتهت وتركَت في

صدري حفرة لا قاع لها.

صوت أبي...

ذلك الصوت الذي تربّيت على احترامه، على الاتكاء عليه...

لم أسمعه يومًا بتلك الطريقة.

ـ لقد خيّبتَ ظنّي بك يا ولدي...كان كفيلًا بأن يطفئ كل ما في

صدري من نبض.

وقفت وسط الضجيج، والمكان يدور حولي دون أن أستوعب ما

يجري.

أقدامي مغطاة بالغبار، والميكسر يصدر صوتًا صاخبًا خلفي،

والعُمّال يصرخون ويتجادلون...

لكنني كنتُ بعيدًا عن كل شيء، كأنني خارج جسدي.

رفعت رأسي نحو السماء الرمادية، كمن يبحث عن شيءٍ ليتمسّك به.

لكن الهواء كان ثقيلًا...

والقلق كان يضغط على صدري مثل حجر ضخم.

تحركت دون تفكير. خطوت باتجاه مكتب الإدارة، كل خطوة كأنها تُسحب من أعصابي.

حين وصلت، طرقت الباب بيدٍ مرتجفة.

كانت المديرة تراجع أوراقًا، رفعت حاجبها حين رأتني:

ـ نعم، آسر؟ ماذا حدث لك؟ تبدو شاحبًا جدًا.

ترددتُ لحظة، شعرتُ أن الكلمات ثقيلة، وعندما خرجت من فمي خرجت مكسورة:

ـ أ... أحتاج إلى إجازة... الآن... فورًا.

وضعت القلم، واقتربت منّي قليلًا، كأنها تحاول قراءة ما خلف

عينيّ:

ـ هل هناك مصيبة في البيت؟

لم أستطع الإجابة.

لكن الصمت كان كافيًا.

تنهدت ثم قالت:

ـ خذ إجازتك... لا داعي لشرح شيء الآن.

شكرتها، وخرجت إلى الشارع بسرعة كمن يهرب من مصيرٍ يطارده.

ركبت أول سيارة، وكل الطريق كان قلبي يسبقني، يخبط في

صدري بعنف.

الطريق كان طويلًا رغم أنه لم يستغرق سوى دقائق.

البيوت تمرّ بجانبي كأنها ظلال... والناس يتحركون كأنهم أشباح...

وكل شيء في رأسي يدور حول جملة واحدة:

أبي عرف... عرف كل شيء...

عندما وصلت، رأيت الباب مفتوحًا على مصراعيه.

كان ذلك وحده كافيًا ليرسل قشعريرة باردة في ظهري.

دخلت.

كانت رائحة القهوة السوداء تعبق في المكان...

وصوت رجلين يتحدثان بنبرةٍ مشتعلة.

رأيت أبي واقفًا، يده على خصره، ووجهه أحمر من الغضب.

وعمي يجلس على الأريكة، ويداه مشبوكتان بقوة، وعيناه مليئتان بالخزي.

- وقفت على عتبة الغرفة.

- لم أتحرك.

- لم أتنفس.

- التفت أبي نحوي.

ولم أنسَ ذلك المشهد ما حييت، عينيه، نظراته، المرارة التي في صوته حين قال:

ـ مرحبًا... مرحبًا **بمن لطّخ اسمنا أمام الناس...!**

لم أجد جوابًا.

لا كلمة... ولا حتى محاولة دفاع.

فجأة... تقدّم نحوي بخطواتٍ ثقيلة.

ورفع يده وصفعني بكل ما يحمل قلبه من غضب وألم.

رأيت الأرض تميل أمامي للحظة... وسمعت طنينًا في أذنيّ... لكنني وقفت، لم أسمح لركبتيّ أن تخوناني.

جلس عمي بجانبه، وأشار إليّ بإصبعه:

ـ لماذا فعلتَ هذا يا آسر؟

لماذا تجرؤ على إيذاء بنت عمّك؟

قل لنا! أخبرنا! هل فقدتَ عقلك؟!

جلست ببطء على الكرسي، كأنني رجل أنهكه العمر كله.

رفعت رأسي بصعوبة وقلت بصوت مبحوح:

ـ أنا... أحبها... منذ صغرنا...ضحك عمي ضحكة قصيرة، متحسرة:

ـ فلهذا تستخدم السحر؟!

لهذا تخالف دينك وتؤذيها؟!

أغمضت عينيّ، وقلت:

ـ لم أكن أريد أن أؤذيها... أبداً لكن الأمور خرجت من يدي، أبي

اقترب أكثر، صوته انكسر وهو يقول:

ـ لم توافق عليك... وهذا حقّها.

لكن أن تذهب لتسحرها؟ أن تؤذيها؟ أن تمسّها بسحر؟

هل هذا ما وصلتَ إليه؟!

لم أجد جوابًا.

لم أجد نفسي أصلاً.

وانحنى أبي عليّ قليلاً، وهمس بنبرة كسرت بتلات قلبي كلها:

ــ لقد كسرتَ قلبي... كسرتَه يا آسر.

وبقيتُ هناك، بين أبي الجريح، وعمي الغاضب، وبين حبٍّ ضاع وسحرٍ تورّطت به، وعالمٍ آخر... بدأ ينفتح تحت قدمي.

جلستُ على الكرسي، ويدي ترتجفان، وقلبي يضرب بسرعة.

كان أبي يحدّق بي بعينين ملؤهما الغضب والدهشة معًا، فيما ظل عمي صامتًا للحظة قبل أن أبي يتحدث:

ــ وكيف علمتم أنّها مسحورة ؟

رفع عمي حاجبيه، وألقى نظرة سريعة إليّ، ثم قال بنبرة حادّة لكنها هادئة:

ــ أمّها لاحظت تغيّرًا غريبًا عليها منذ مدّة... بدأت تسمع أصواتًا وتتكلم بكلماتٍ غريبة وهي نائمة... كلمات باسمك أنت يا آسر.

وفي بعض الليالي، حين تشغّل القرآن الكريم... كانت تهرب أو تغطي أذنها، وكأنّ هناك شيء يمنعها من سماع القرآن.

توقفتُ عن التنفس للحظة، وكأن الكلام تجمّد في صدري.

لم أكن أعرف أن هذا الأمر وصل إلى هذا الحد، ولم أكن أعلم أنّ أمّها بدأت تلاحظ شيئًا، شيئًا يربطني بها بشكلٍ غريب.

قال أبي بنبرةٍ متقطعة من الغضب والحزن:

ـ وهل هذا يعني أنّك... أنت من أذيتها؟

هل استخدمت السحر عليها؟

ارتجف صوتي حين هممت بالكلام، لكن كلمات عمي كانت تسبقني:

ـ هو يحبها منذ صغره...

حاول أن يكون قريبًا منها، لكنه لم يقدر أن يحصل على قلبها بطريقة طبيعية... فكان ما فعله.

حدّقت فيهم، شعور بالذنب يثقل كل جزء من جسدي،

لم أجد كلمات أبرّر بها نفسي، ولم أجد عذرًا يخفّف من وقع

الاتهام.

أضاف أبي، وقد ارتفع صوته قليلاً:

ـ وإن لم توافق، فستضطرّ إلى فعل السحر؟

هل هذا صحيح؟ هل ستؤذيها لتُجبر قلبها على أن يحبك؟

جلستُ ساكنًا، أغمضت عيني، محاولًا تهدئة نفسي، لكن كل شيء

بدا كأنه ينهار حولي... الصمت في الغرفة كان يثقل الهواء،

والأصوات من حولي تتلاشى، ولم يبقَ سوى تلك الكلمات،

كلماتهم التي صدمت قلبي، وأكدت أنّني أمام مسؤولية أكبر مما

توقعت.

خالد في داخلي لم يهمس، لكن شعور حضوره كان يزداد قوة...

كأنه يراقب كل تحرك لي، مستعدًا للخطوة التالية.

وأدركت أن القرار الذي اتخذته سابقًا... الاتفاق مع خالد... أصبح الآن أكثر خطورة، وأن أي حركة خاطئة مني قد تدفعني لأبعد مما أريد...

جلستُ ساكنًا في مكاني، أغمضتُ عينيّ محاولًا جمع ما تبقّى من أنفاسي. شعرتُ كأن الأرض تميد تحتي، وكأن الكلمات التي سُمِعَت منذ لحظات تهوي فوق رأسي حجرًا تلو الآخر.

الغرفةُ التي لطالما بدت مألوفة، غدت ضيقةً عليّ؛ الهواءُ صار أثقل، والجدران أقرب، والهدوء المحيط بي لم يكن هدوءًا... بل ضغطًا يسحق صدري.

تردّدت كل كلمة من كلامهم في أذني كأنها تُعاد بلا نهاية:

سحر... تهلوس باسمي... تغطي أذنيها حين تسمع القرآن...

اتهامات تتجه نحوي من كل الجهات، تقطع الطريق حتى على محاولة التفكير.

لم أسمع صوت خالد، لكن حضوره ازداد وضوحًا...
كأن ظله انحنى على روحي، يراقبني، يستمع، يختبر ضعفي. لم ينطق، لكنه كان هناك؛ هادئًا، ثابتًا، ينتظر اللحظة التي ينفذ منها إلى قراري.

تذكّرتُ الاتفاق الذي عقدته معه، تلك اللحظة التي ظننتها خطوة نحو القوة، فإذا بها الآن تقف أمامي كسلسلة تلفّ معصمي.
شعرتُ لأول مرة أنني لا أتشارك جسدي فقط... بل إن كل قرار أتخذه أصبح يحمل أثرين: أثري... وأثره.

رفعتُ رأسي قليلًا، تنفّست ببطء، محاولًا ألا أُظهر ضعفي، لكن داخلي كان يعترف به بوضوح.

أدركت حينها أن الخطوة القادمة لن تعني فقط إنقاذ نفسي من الاتهام... بل حماية ليان ذاتها؛

حمايتها من سوء الفهم، من كلام أهلها، من نفسي... ومن خالد.

وما أخافني تمامًا... هو إدراكي أن أي حركة خاطئة مني قد تدفعني إلى نقطة لا عودة منها.

خطوة واحدة... قد تجعل خالد أقرب، تجعلني أبعد، تجعلني أفقد السيطرة على جسدي، وعلى من أحب.

فتحتُ عينيّ أخيرًا... كانت الغرفة كما هي... لكن شيئًا داخلي لم يعد كما كان

رفعتُ رأسي ببطء، كأن الحركة نفسها تحتاج شجاعة. كان أبي واقفًا أمامي، وعمّي يجلس إلى جانبه، كلاهما ينتظران كلمتي، ينتظران اعترافًا... أو كذبًا... أو أي شيء يبرّر ما وصلهما.

قال أبي بصوتٍ حادّ، يضغط على كل حرف:

ـ تكلّم يا آسر... قل لنا ماذا فعلت؟

تردّدتُ لحظة، ثم قلت بصوتٍ خافت، لكنه ثابت:

ـ لم أُرِد إيذاء أحد.

قهقه عمّي بسخرية مريرة:

ـ وما الذي يُسمّى هذا إذن؟ سحر؟ تهويمات؟ بنتي تذكر اسمك في نومها، وتصرخ، وتغطي أذنيها من القرآن... وتقول لماما: "هو هنا... آسر هنا"!

أحسستُ بجسدي يبرد...

لم أتخيّل أن الأمر بلغ هذا الحد.

تابع عمّي وهو يحدّق في وجهي كأنه يخترق صدري:

ـ كيف علمنا؟ أمّها هي التي أخبرتنا. رأت تغيّرًا عليها، رأت خوفها... رأتك تخرج من فمها كل ليلة!

شدّ أبي على قبضته وقال:

ـ أخبروني أن شيخًا دخل بيت عمّك، وقرأ، وقال: "هناك أثر...

شخص تعلّق قلبه بها، فتعلّق روحها به". أهذا ما أردته؟ أن تربطها بك؟ أن تجعل اسمنا على لسان الناس؟

لم أعرف ماذا أقول.

لم أعرف ماذا أبرّر.

ليس لأنهم على حق... بل لأن جزءًا صغيرًا داخلي كان يخاف أن يكون الاتفاق مع خالد هو الذي سبّب هذا... دون أن أدرك.

تمتمتُ بصوت مكسور قليلًا:

ــ أنا... أحببتها منذ كنا صغارًا... فقط... كنت أحاول أن أقترب... ولم أرد هذا كلّه.

نظر إليّ أبي نظرة طويلة، كأنه يرى شخصًا لم يعد يعرفه، ثم قال ببطء، صوتُه يحمل غضبًا وحزنًا معًا:

ــ الحب لا يبرّر الضرر يا آسر. إن لم توافق عليك... فهل يكون الحل

أن تربطها بك؟ أن تجعلها ترى الكوابيس؟ أن تجعل أهلها يشكّون فيك وفي نواياك؟

أطرقتُ رأسي، أشعر بثقلٍ فوق قلبي.

وهنا... شعرت بحركة خفيفة في داخلي... لم يكن صوتًا... لكن كان واضحًا أن خالد استيقظ لما سمع كل ذلك.

كان كمن يقول لي دون كلام:

الآن... وصلنا إلى اللحظة التي لا مفرّ منها.

رفعتُ رأسي من جديد، وأنا أعلم...أن ما سيلي هذه المواجهة لن يشبه ما قبلها.

تقدّمتُ خطوة نحو عمّي، رغم أنّ قدميّ كانتا أثقل من الصخور.

شعرتُ أنّ أي كلمة ستُقال ستغيّر مصيري... لكنها كانت لحظة لا يمكن الهرب منها.

قلت بصوت منخفض، لكن واضح:

ـ أعتذر... لم أقصد إيذاء أحد. وإن كان ما حدث سبّب لكم خوفًا أو سوءًا... فأنا آسف.

لم يردّ عمّي مباشرة. اكتفى بالنظر إليّ نظرة طويلة، محمّلة بالغضب والخذلان. ثم قال، بصوت أقرب إلى الحكم منه إلى الكلام:

ـ الاعتذار وحده لا يكفي يا آسر.

رفع يده وأشار إليّ كأنّ بيننا مسافة لا يمكن عبورها:

ـ اسمعني جيدًا... ولن أعيد الكلام مرتين.

اقترب أبي منه قليلًا، كأنه يترك له زمام الأمر، وواصل عمّي بصوت بارد:

ـ من هذه اللحظة... تترك ليان خارج حياتك. لا تتحدث عنها، لا تفكر فيها، لا تراسلها، ولا تدور حول عالمها بأي طريقة.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة، لكني قلت بثبات:

ـ سأفعل ما تريد.

هنا مال عمّي إلى الأمام، وصوته انخفض حتى صار كصفعة هادئة:

ـ وإن سمعتُ يومًا... يومًا فقط... أنك تدخلتَ في شأنها، أو أنك تحاول الاقتراب منها من جديد... فلن يكون القضاء هو أول من يصل إليك... بل سأكون أنا.

سكت لحظة، ثم أكمل ببطء:

ـ وسأضمن أن نهاية هذا الأمر... تكون خلف القضبان.

شعرتُ كأن الهواء ضاق من حولي.

لم تعد المسألة غضبًا عائليًا فقط... بل تهديدًا حقيقيًا، صريحًا، يضع حدًا بيني وبينها لا يمكن تجاوزه.

أومأتُ برأسي، وأنا أحاول أن أحافظ على توازني:

ــ لن يحدث شيء... أعدك بذلك.

عندها أشاح عمّي بوجهه عني، كأنه لم يعد يحتمل رؤيتي. أما أبي فأطلق نفسًا طويلًا، فيه غضب... وفيه راحة صغيرة لأنّي خضعت.

لكن داخلي... لم يكن هادئًا.

كان خالد يتحرك

كظلٍ أسود يمرّ في صدري، كأنه يبتسم ابتسامة لم أكن أعرف معناها.

– ها أنت تعتذر... وتتنازل... وتخاف... لأنهم هددوك بسجنٍ؟

– وماذا عن السجن الذي وضعوك فيه أنت منذ سنوات؟

لم يكلّمهم خالد... بل كلّمني أنا.

أما أنا... فبينما أقف أمام أبي وعمّي، عيناي إلى الأرض... كنت أعرف أني دخلت مرحلة جديدة.

مرحلة بلا ليان...مرحلة مراقبة... مرحلة تهديد صريح.

لكن... مرحلة فيها روحٌ أخرى تشاركني جسدي... وروحٌ أخرى تنتظرني في عالم اللاوعي.وهذا... لم يعرف عنه أحدٌ منهم شيئًا.

بعد أن غادر عمّي المجلس وهو ما يزال يتمتم بغضبه، ساد صمت ثقيل في المكان، صمت لم يكن يشبه أي صمتٍ عرفته من قبل... كأن الهواء نفسه توقف عن الحركة.

بقي أبي واقفًا، عيناه مثبتتان عليّ... ليست نظرة أب لابنه، بل نظرة قاضٍ لمن حكم عليه.

ثم قال بصوت منخفض... خطير... ليس فيه ذرة تردد:

ـ اخرج يا آسر.

رفعت رأسي ببطء، غير مصدّق ما سمعت:

ـ أبي... أنا

قاطعني بصوت حادّ، رفع رأسه فيه كبرياء رجل جُرح اسمه:

ـ لا تسمِّني أبي.

شعرتُ كأن الأرض اهتزّت تحت قدمي.

واصل كلامه، ويبدو أنه كان يحاول أن يمنع يده من الارتجاف:

ـ اليوم... كسرْتَ ظهري.

ثم اقترب خطوة واحدة، ووجّه كلماته نحوي كأنها سكاكين:

ـ الناس تتحدّث... عمّك فقد ماء وجهه... والبنت فقدت صحتها... ونحن صرنا حديث القرية لأنك... لأنك تصرفت كالعاقّ الذي لا يخشى من خلقه.

تنفّس أبي بعمق، وكأنه يحبس غضبه عن الانفجار، ثم قال بصوت منخفض لكنه أشد قسوة من الصراخ:

ـ من هذه اللحظة... لا أنت ابني... ولا أنا أبوك.

تجمدتُ في مكاني، لم أعرف هل أتنفس أم لا، لم أعرف هل قلبي توقف أم انفجر.

قلت بصوت مبحوح، كأن أحدهم يضغط على حنجرتي:

ـ أنا... لم أرد إيذاء أحد... أقسم لك...

ضرب أبي بيده على الطاولة بقوة، ثم صرخ للمرة الأولى:

ـ أخرج!!

ارتجفت يداي... لم أجد القوة للكلام.

نظرت حولي بحثًا عن شيء أتمسك به... كلمة... نظرة... أي شيء

يخفف الألم.

لكن لم يكن هناك سوى جدارٍ أسود بيني وبين من ربّاني.

خطوت خطوة إلى الخلف.

ثم أخرى.

ثم استدرت نحو الباب.

وبينما كنت على وشك الخروج، جاء آخر سهم منه... بصوتٍ خافت

لكنه كان أقسى ما سمعت في حياتي:

ـ لو بقيتَ تحت هذا السقف دقيقة أخرى... فلن أضمن نفسي.

خرجتُ.

الباب أغلق خلفي بصوتٍ جعل قلبي ينكمش.

الشارع كان مظلمًا... والسماء خالية... لكن داخلي كان أشد ظلمة.

– لم أبكِ، لم أصرخ، لم أتراجع، كنتُ فقط... فارغًا.

وخالد؟

كان يقف في داخلي... ساكنًا... بلا همسات هذه المرة

عدت إلى المحطة وأنا أشعر بأن كل خطوة أثقل من التي قبلها. لم يكن التعب جسديًا، بل شعورًا بثقل كل ما حدث خلال اليوم. الصفعة التي وجهها لي والدي، كلمات عمي، تهديداته، طردي من البيت... كل شيء كان يضغط على صدري وكأن العالم كله ضدّي.

جلست في الزاوية المعتادة، ووضعت حقيبتي على الأرض بجانبي. شعرت بالبرد يتسلل إلى عظامي، لكن ما كان أكثر بردًا هو شعور الفراغ بداخلي. حاولت أن أهدئ نفسي، أغمضت عيني لحظة، لكن كل شيء بدا وكأنه يتلاشى حولي البيت الذي فقدته، عائلتي التي شعرت أنها لم تعد تفهمني، وحبي لليان الذي لم أعد أستطيع الاقتراب منه.

ثم شعرت به. خالد. حضوره بدا أقوى من أي وقت مضى. لم يتكلم بصوت مسموع، لكنه كان في عقلي، يراقب كل حركة لي، يحلل كل شعور بداخلي. شعرت وكأن جزءًا مني أصبح مجرد مراقب له، مستعد لتقديم الدعم، لكنه أيضًا يختبرني.

قال لي داخليًا بصوت واضح:

– أنا هنا الآن لأذكرك أنك ضعيف، وأن العالم لن يمنحك شيئًا إذا بقيت هكذا. لكنني سأقف معك... إن سمحت لي.

تنفست ببطء. لم أرد أن أظهر خوفي، لكن شعورًا بالفضول بدأ يتسلل إلى. قلت له بصوت داخلي:

– وماذا تريد بالضبط منك؟ لماذا تظهر الآن؟

رد خالد بوضوح:

– أريدك أن تتوقف عن الهروب من نفسك. أريدك أن تصبح أقوى.

لن تحصل على ليان، ولن تحصل على حياتك، ولن تحصل على أي شيء، إلا إذا بدأت في بناء نفسك من جديد.

جلست ساكنًا، أغمضت عيني، وحاولت أن أستجمع كل قوتي الداخلية. لأول مرة لم أرفض حضوره. شعرت أنني بحاجة إليه، رغم كل ما شعرت به سابقًا من خوف وغضب.

قلت له داخليًا:

– حسنًا... لنبدأ إذن. لكن بشرط ألا تؤذِ أحدًا. أنا لست وحشًا، ولن أسمح لأنفسنا بأن نصبح وحشين.

كان حضوره يبتسم في عقلي بطريقة غريبة، وقال:

هدّئ نفسك، يا آسر. نحن لن نصبح وحشين... سنصبح أقوى، وهذا كل ما تحتاجه الآن.

رفعت رأسي، ونظرت إلى رصيف المحطة. الهواء البارد كان يلسع وجهي، لكن بداخلي شعرت بشيء جديد. شعورٌ بأنني لم أعد ذلك

الفتى الذي خرج من بيته مطرودًا قبل ساعات. شعرت أنني بدأت أستعيد قوتي، وأن خالد لم يعد مجرد ضيف داخل جسدي، بل أصبح شريكًا حقيقيًا في قراراتي، في تحركاتي، وفي نفسي.

نزلت يدي عن وجهي، وجلست مستقيمًا. كان القرار واضحًا: سأبدأ التغيير من هنا. سأعيد ترتيب حياتي، وسأتعلم كيف أكون أنا، وكيف أستفيد من قوة خالد بدلًا من أن أهرب منها.

هذه كانت البداية الحقيقية. بدايةً لم أكن أعلم حينها أنها ستقودني إلى عالم جديد، وإلى علاقة مختلفة مع كل شيء حولي... علاقة بيني وبين نفسي، وبين خالد، وبين العالم الذي لا يرحم الضعفاء.

عدت إلى المحطة وأنا مثقل بأفكار لا أستطيع ترتيبها. كل خطوة كانت ثقيلة، وكل حركة كأنها تتحدى وجودي. لم أعد أهتم بما حولي، ولا بأصوات الناس الذين يمرون بجانبي. كل ما

شعرت به كان داخلي، تلك المعركة الصامتة بيني وبين كل ما فقدته، كل ما خسرته، وكل ما لم أستطع الوصول إليه.

ثم شعرت به. خالد. ليس بصوت مسموع، ولا بتدخل مباشر، لكن حضوره كان واضحًا، كأن شيئًا من روحه يلمس أفكاري. لم يكن هناك حديث، لم يكن هناك إملاء أو أمر. كان مجرد إحساس، شعور خفي بأن هناك من يراقب معي، يلاحظ، يهمس أحيانًا بطريقة خفيفة، كأنه يريد أن أرى شيئًا لم أنتبه له.

جلست على حافة الرصيف، أضع حقيبتي بجانبي، وأراقب حركة المحطة بلا هدف. شعرت بالبرد يتسلل إلى يدي، لكنه لم يكن يزعجني. كل شيء بدا ضبابيًا حولي، وكأن الزمن توقف للحظة واحدة، وكان ما بداخلي أكثر وضوحًا من كل شيء آخر.

في عقلي، كان خالد هناك. لم يكن يسيطر عليّ، لكنه جعلني أشعر بوجوده. أحيانًا كان يوجّه انتباهي إلى فكرة صغيرة، إلى

حركة صغيرة، لكن لم يكن يفرض أي شيء علي. شعرت لأول مرة منذ أيام أنني لست وحدي، وأن هذا الوجود المزدوج ليس تهديدًا، بل حالة طبيعية يجب أن أتعايش معها.

تحركت ببطء نحو حقيبتي، أمسكت بالقلم والدفتر الذي جلبته معي، لم أكن أكتب لنفسي أو للآخرين، فقط شعرت برغبة خفيفة أن أدوّن ما أشعر به. خالد لم يتكلم، لكني شعرت أن حضوره يراقب الخطوط التي أسطرها، أحيانًا يهمس لي "انتبه لهذه الفكرة" أو "لاحظ شيئًا هنا"، دون أن يغير في قراري أو يفرض علي أي شيء.

كان كل شيء صامتًا، لكن كل حركة صغيرة كنت أقوم بها كانت تجعلني أشعر بشيء جديد: شعور بالاستقلال، مع وجود خالد بجانبي، دون أن يفقد أي منّا هويتنا. لم أعد أفكر في الماضي المؤلم، ولا في والدي، ولا في عمي، ولا في تهديداتهم. كل ما كان يهم هو هذه اللحظة، أن أستعيد قدري بطريقتي، وأحافظ على نفسي وسط كل الفوضى التي تحيط بي.

جلست هناك لساعات، أكتب، أراقب، أتنفس، وأستشعر وجود خالد بجانبي. لم يحدث أي تغيير مفاجئ، لم أطلب شيئًا ولم يسيطر أحد على الآخر. كان كل شيء طبيعيًا، لكنني شعرت لأول مرة منذ أيام طويلة أن هناك استقرارًا بداخلي، على الأقل نسبيًا.

مرت الأيام عليّ في المحطة، وأنا أعمل كما اعتدت، كل يوم مماثل لليوم الذي قبله. لم تصلني أي أخبار عن أهلي، ولم أفكر بهم كثيرًا. كل شيء أصبح روتينًا، والعمل أصبح وسيلتي للهروب من أي تفكير آخر.

في أحد الأيام، جاءني اتصال من صديقي في بلدي. كان صوته متوترًا، وكأن ما سيقوله ثقيل على نفسه قبل أن يخرج:

ـ آسر... لا أعرف كيف أقولها، لكن... ليان... ستتزوج بعد ثلاثة أيام.

توقف قلبي للحظة. لم أجد ما أقول، لم أتمكن من التعبير عن أي شيء. شعرت كأن الأرض تحولت تحت قدمي، كأن كل شيء كنت أحلم به مع ليان بدأ يتلاشى فجأة.

مرت يومان فقط بعد تلك الصدمة. وعندما علمت أن زفافها سيكون غدًا، لم أستطع تحمل الانتظار أكثر. توجهت إلى المدير وطلبت إجازة فورية. لم أحتاج أن أشرح شيئًا، شعرت أن نظراته وحدها تكفي.

حالما أنهيت الإجراءات، تركت المحطة خلفي، والقلق يثقل صدري. قررت أن أقضي الليلة عند صديقي في المدينة، لأتمكن من ترتيب أفكاري قبل الغد.

وصلت إلى منزله، وجلسنا سويًا، لكن نظراته لم تكن ودية كما اعتدت:

ـ لماذا نزلت الإجازة الآن؟ ألم يطردك والدك بعد ما حدث؟ كيف سيكون لديك وجه لتحضر زفافها بعد كل هذا؟

أجبت بصوت خافت:

ـ لم أستطع الانتظار أكثر.. أردت أن أرى الحقيقة بنفسي... لا يمكنني أن أظل هنا أراقب الأيام تمر دون أن أفعل شيئًا.

صديقي هز رأسه، وكأنه يفهم الصراع الذي بداخلي، لكنه لم يترك انتقاده يخف:

ـ ستواجه صعوبة كبيرة... وهذا فقط بداية ما ينتظرك.

جلست صامتًا، أفكر في كل شيء. صدمة الخبر، الزفاف القادم، شعوري تجاه ليان، والوقت الذي ضاع دون أن أفعل شيئًا. كل شيء كان يضغط عليّ، لكنني أدركت شيئًا واحدًا: لا يمكنني الهروب، لا يمكنني التراجع.

كانت تلك الليلة طويلة...لم تكن تلك الليلة كأيّ ليلة.

جلستُ على فراش صديقي، في غرفة ضيقة، والنافذة مفتوحة يدخل منها هواء ثقيل... كأنه يحمل نذيرًا لا أعرف معناه.

كنت أفكر في ليان... في زفافها... في غدٍ سيضع نهاية لكل شيء بداخلي.

وفجأة... شعرت بالحضور الذي أعرفه جيدًا. لم يصل بصوت، ولا بلمسة... بل كأنه فكرة لا أملك إلا أن أسمعها.

ـ لو كنتُ مكانك... والفتاة التي أحبّها ستتزوج... لقتلتُ ذلك الذي سيتزوجها.

تجمدت.

لم أرفع رأسي، لكن قلبي تحرك بعنف.

ـ خالد... قتل؟! مستحيل أصل لهذا الحد.

جاء رده كابتسامة باردة تمر داخل دماغي:

ـ هل تخاف؟ البشر لا يخافون من القتل... الخوف يأتي فقط لأنكم تظنون أن أجساد البشر قوية. لكنها هشّة... هشة للغاية. ضربة واحدة... تنهار الحياة كلها. عندما تدرك هذه الحقيقة... ستتجاوز كل خوف.

وضعت يدي على وجهي، أحاول السيطرة على أنفاسي.

ـ لن أفعل شيئًا كهذا... لن أصبح قاتلًا.

ضحك خالد ضحكة قصيرة:

ـ قلت لن تصبح... وليس أنك لا تستطيع. غدًا... في لحظة واحدة... ستعرف كم كنتَ مخطئًا.

لم أجيبه.

لكن داخلي كان يهتز.

كانت تلك الليلة أطول مما أحتمل، وكلما حاولت النوم، شعرت بعيون خالد تراقبني من الداخل... ينتظر الصباح

عندما جاء اليوم التالي، شعرت كأنني أدخل إلى عالم آخر.

ارتديت قناعًا أسود بسيطًا يخفي نصف وجهي، حتى لا يتعرف أحد عليّ.

ركبت أول ميكروباص متجه إلى قريتي.

وفي كل لحظة من الطريق، كان خالد يتمدد حضورُه داخلي...

كأن روحي تضعف وهو يزداد قوة.

وصلت إلى مكان الزفاف عند الغروب.

الأضواء، الأغاني، أصوات الضحك... كل شيء كان يبدو بعيدًا عني، وكأنني أرى مشهدًا من خلف زجاج بارد.

دخلت بهدوء.

لم ينتبه أحد لوجودي، وهذا ما أردته.

حتى رأيتها.

ـــ ليان.

في أجمل هيئة رأيتها فيها... لكن قلبها ليس لي.

عندما اقتربت، التفتت إليّ بدهشة خفيفة، ربما لم تتعرّف عليّ بسبب القناع... أو ربما لأنها لم تتوقع حضوري.

وقفت أمامها، بصوت حاولتُ جهدي أن لا يرتعش:

ــ جئتُ لأبارك لكِ... وأقول شيئًا أخيرًا.

رفعت رأسها قليلًا، تنتظر حديثي.

ــ ليان... أنا ما زلت أحبك. وسأظل أحبك... حتى آخر نفس فيّ حياتي.

رأيت الارتباك في عينيها، وشهقة صغيرة خرجت من صدرها.

لكنني لم أمهلها لتجيب.

التفتُّ نحو العريس... الرجل الذي أخذ مكاني دون أن يقاتل.

اقتربت منه، مددت يدي كمن يهنئه، ثم حنيت رأسي، وقرّبت فمي من أذنه وهمست:

ـ" أنا حلمت... وانت فزت بالواقع...وكنتُ أنا مَن يخوض الحروب داخل روحي دائما، لكنّك أنت الذي خرج منتصرًا في النهاية،من دون أن تخوض معركة واحدة."

في تلك اللحظة... خفف لي خالد حركتي.

كنت أرى فقط من خلف عينيه، كأنني محبوس في زجاج معتم، أسمع نبضه وهو يتحوّل إلى هدير.

اندفعت نحو العريس بقوة لم أعرفها من قبل، وطعنته الأولى غرست كل الغضب المكبوت بداخلي، وانا اقول انا احبها ويزوجوها لغيري رغم معرفتهم لحبي لها ويلقون باللوم علي لأستخدامي لسحر اللعنة عليك تريد ان تاخذ من احب هنياً لك الموت ياهذا.

ثم طعنتة بالثانية... والثالثة... كل طعنة هزّت جسده وكسرت الهواء

حولنا مع دم الذي يملأ أنحاء وجهي منه.

الطعنات الخمس في بطنه لم تُعطِه فرصة ليلتقط سقوطه... كانت النهاية تتقافز أمامه دون رحمة.

ثم رفعتُ يدي إلى عنقه، والضربة الأخيرة خرجت مني حادة وصامتة... صمتٍ يشبه الشرخ الذي يقسم العالم نصفين.

وفي لحظة لا أفهمها، اندفع جسدي للخارج بقوةٍ لم تكن من هنا... كأن شيئًا أعمق من الألم نفسه أمسك بي ورماني بعيدًا عن الوجود.

عندما أدركتُ ما فعلته جسدي، تراجعت خطوة... ثم أخرى، وكأن الأرض تبتلع آثار قدمي كي لا يقترب مني أحد.

خرجت من بين الناس دون أن يلمسني شخص واحد، كأن الظلال هي التي تفتح لي الطريق.

لا أعلم إن كنت أركض... أم أسقط... كل ما أعرفه أنني وجدت نفسي خارج القاعة في ثوانٍ، أتنفس بشراهة، والقناع على وجهي يرتجف مع كل نفس يكاد يخنقني.

وفي داخلي... جاء صوت خالد، هادئًا بشكلٍ يثير الرعب:

ـ الآن فقط... أصبحتَ تعرف حقيقتك.

كانت الأنفاس تخرج من صدري كأنها محاولات يائسة للنجاة من شيء يعيش بداخلي، لا خارجي.

تمدّدت لحظة على باب القاعة... ثم سمعت خلفي صراخًا يعلو، يختلط بالرعب، بالبكاء، بوَهْلَةٍ أولى للكارثة.

لم ألتفت.

كنت أعرف جيدًا أن مجرد نظرة واحدة للداخل قد تُسقط ما تبقى من إنسانيتي.

سرتُ على الرصيف كأنني أتعلّم المشي من جديد، كتفاي يرتجفان، وحرارة الدم الذي على وجهي بدأت تبرد... تبرد بطريقة جعلتني أرتجف أكثر.

شعرت بأن خالد ينسحب من عروقي ببطء، وكأن قبضته التي كانت تحرّكني بدأت تُرخِي أصابعها واحدة واحدة.

وقفت تحت عمود نور، حاولت أن أفهم نفسي.

رفعت يدي إلى القناع... لم أعرف هل أخلعه أم أتركه يحميني من حقيقة وجهي.

وقبل أن ألمسه، سمعت صوته من داخلي—

لم يكن خالد يصرخ... ولم يكن غاضبًا.

كان هادئًا بشكل مخيف.

انتهى الأمر...

قالها وكأنه يضع نقطة في آخر جملة لم تُكتب أصلاً.

شعرت بثقلٍ يسحب صدري إلى الأسفل، ومعه ألم حاد في رأسي...

ثم رأيت الشارع أمامي يتشقق لحظة، كأن الظلال تتحرك فوق بعضها.

لم أعد أرى بوضوح.

في تلك اللحظة، سقطتُ على ركبتي.

وضعت يدي على الأرض... شعرت بها تبعدني، تدفعني، كأن كل شيء حولي يرفض وجودي.

أخذت أتنفس بقوة، ثم نظرت إلى يدي...

كانت ترتجف، ممزوجة بدمٍ ليس دمِي.

همست لنفسي بصوت متقطع:

أنا... ماذا فعلت؟

هل كنت أنا؟

ولا كنت مجرد سلاح؟

الهواء صار خفيفًا... خفيفًا لدرجة أني شعرت أني أطير رغم أني ثابت في مكاني.

خرجت من القاعة، وظهري يلتصق بالجدار كأنني أحاول الهروب من نفسي قبل الهروب من الناس. الهواء كان ثقيلًا، يضغط على صدري، والقناع على وجهي صار كأنه جلد آخر يخنقني.

خطوت خطوات قليلة فقط... ثم سمعت الصراخ.

كان يأتي من داخل القاعة، صراخٌ واحد أولًا... ثم ارتفع أكثر... ثم صار ضجيجًا كاملًا، يختلط فيه الذعر بالبكاء، واسم العريس يُنادى بصوتٍ مرتعش.

وفجأة... اخترق كل الأصوات صراخٌ حادّ:

هناك... هناك... القاتل يقف!!

تجمدت.

لم أعد أميز إن كان الدم على وجهي لي أم له، لكن تلك الكلمات ضربت رأسي مثل صاعقة.

لم ألتفت.

لم أملك الشجاعة حتى للنظر.

كل ما فعلته... أنني ركضت.

ركضت بكل ما بقي في جسدي من قوة.

ركضت كأن الشوارع تمتدّ لتبتلعني، كأن الظلام يفتح لي طرقًا لا يراها غيري.

أحسست أن الأرض تحاول أن تُسقطني، أن الهواء يجرّني للخلف ليعيدني لداخل الكابوس، لكنني كنت أهرب من شيء أكبر من الناس... كنت أهرب من نفسي.

وصلت إلى الشارع الرئيسي، أنفاسي تتقطع، ساقاي ترتجفان، والليل يلتف حولي كالحبل.

لم أتوقف.

لم أنظر خلفي مرة واحدة.

كل ما عرفته في تلك اللحظة هو أن قدميّ حملتاني تلقائيًا... إلى المكان الوحيد الذي بقي لي... المحطة.

عندما وصلت، لم يكن هناك أحد.

المقاعد فارغة، الأضواء باهتة، والليل يلفّ المحطة كأنها مهجورة منذ سنوات.

جلست على الأرض، ظهري على الجدار البارد، وأخفيت وجهي بين يديّ.

نبضي كان يضرب كأنه يريد أن يخرج من صدري.

ويدي التي أمسكت السكين قبل دقائق... كانت ترتجف بلا توقف.

هنا... عند هذا الجدار... في هذه المحطة... فهمت شيئًا واحدًا:

لم يعد هناك طريق للعودة. لا للبيت، ولا لأهلي، ولا لحياتي التي عرفتها.

وكلما حاولت تهدئة نفسي... كنت أسمع الصراخ يتكرر في أذني:

هناك... القاتل... يقف عند شارع...

كأنه لعنة جديدة بدأت تلتف حول رقبتي.

عاد آسر إلى المحطّة وهو يلهث، يجرّ خطواته كأن الأرض تسحبه إلى الأسفل.

جلس في نفس الركن الذي اعتاد الاختباء فيه، غير أنّه في هذه الليلة لم يكن يهرب من العالم... بل كان يهرب من نفسه.

ظلّ جسده يرتجف، وأنفاسه تتلاحق، فيما ما زال يشعر ببرودة السكين في يده، وصوت الصراخ يطارد أذنيه.

كان كل شيء في داخله يصرخ، لكن لا صوت يخرج منه.

وبينما هو غارق في اضطرابه، سمع وقع خطوات تقترب... خطوات ثابتة لا تحمل أي رحمة.

رفع رأسه قليلًا، فإذا المديرة تقف أمامه.

تأمّلت وجهه الشاحب، وثيابه التي غمرها غبار الطريق، وعينيه التي لم تعد تشبه عيني رجل عادي.

ثم قالت بنبرة صارمة، لا تعرف العطف:

يا آسر... لقد انتهت مدّة إجازتك.

لم يحرّك ساكنًا.

كانت الكلمات كأنها سقطت عليه من علٍ، فهوت بكل ثقلها على صدره.

وأضافت المديرة، بصوت أكثر شدّة:

نظام العمل واضح وصارم. أخذت إجازة قبل يومين، ولا يحقّ لك طلب إجازة أخرى الآن.

إن رغبتَ في الاستمرار في عملك، فعليك الحضور غدًا صباحًا... دون أي نقاش.

وإن تغيّبت... فسنعتبرك مستقيلًا.

رفع آسر بصره إليها، لكن عينيه كانتا معلّقتين في مكان بعيد...

في القاعة...في الدم الذي سال...في اللحظة التي طعن فيها العريس...وفي هروبه الذي لم يشبه، هروب البشر.

تمتم بصوت مكسور:

أنا... أحتاج قليلًا من الوقت... فقط بعض الوقت.

قاطعته المديرة بحدّةٍ أكبر:

لا وقت لدينا. المحطّة لا تتوقّف من أجل أحد.

إمّا أن تعود إلى عملك... أو ترحل.

شعر آسر كأن العالم كلّه يدفعه إلى الجدار نفسه...بيتٌ طرده...أهلٌ تبرّؤوا منه...فتاة فقدها...وعمل لا يمنحه حتى فرصة لالتقاط أنفاسه.

خفض رأسه، ثم قال بصوت خافتٍ مستسلم:

حسنًا... سأعود غدًا.

هزّت المديرة رأسها، ثم استدارت وغادرت من غير كلمة أخرى، كأنها تخاطب ظلًّا لا إنسانًا تحطّم قبل ساعات.

بقي آسر في مكانه، رأسه بين ركبتيه، والظلام يزحف من حوله، يعصر صدره شيئًا فشيئًا.

وفي عمق داخله...انبثق صوت خالد، منخفضًا كهمسٍ شيطانيّ، يحمل سخرية باردة:

ألم أقل لك؟ أجساد البشر هشّة...وأنت الآن أحدهم.

بقيتُ جالسًا في زاوية المحطّة، والليل يحاصرني.

كنت أسمع أنفاسي وحدها، ومع ذلك شعرت بأنفاس أخرى تنبع من داخلي... ليست لي.

لم يكن خالد يتحدّث...بل كان ينتظر.

فجأة، خيّم صوته في رأسي، هادئًا، باردًا، وكأنه يبتسم من خلف الظلام:

أترى يا آسر؟ هكذا يصبح الإنسان حين يخسر كل شيء.

ضعيفًا... هشًّا... يبحث عن يدٍ يمسك به.

وضعت يدي على رأسي، محاولًا إسكات ذلك الهمس، لكن صوته ازداد وضوحًا:

أنت لم تهرب من القاعة واحدة...هرب خوفك ايضا من نفسك.

صرختُ في داخلي:

ـ توقّف! لا أريد سماعك، خوفا ماذا الي هرب مني اني اموت خوفاً الان بسببك فقط أصمت.

ضحك خالد... ضحكة قصيرة حادّة:

ـ لم تعد تملك رفاهية الرفض.

ـ اتفاقنا واضح...وقت العمل لك، وما بعد العمل لي.

ـ والآن... الليل لي يا آسر.

شعرت بقلبي يهبط، كأن شيئًا ثقيلًا يجلس عليه.

ثم ظهر أمامي داخل رأسي مشهد القاعة من جديد، الدم، الصراخ، الطعنات، يدٌ تتحرك ليست يدي...وقلبٌ يخفق ليس قلبي.

قلتُ بصوتٍ مرتجف:

أنت الذي فعلت... ذلك... ليس أنا...فأجاب خالد ببرود:

ـ أنا استخدمت جسدك، نعم..لكن الغضب؟

ـ الألم؟

ـ الغيرة؟

ـ كلّها كانت منك.

ـ أنا فقط... أطلقتها.

انكمشتُ على نفسي، وكأنني أحاول الاختباء داخل جسدي الذي لم يعد ملكي تمامًا.

همس خالد:

ـ نم الآن...غدًا تبدأ لعبة جديدة.

وببطء... ومع ثقلٍ يضغط على جفوني، انزلقتُ في نومٍ لا يشبه النوم.

نومٍ بلا أحلام...بلا راحة...بلا خلاص.

كان آخر شيء سمعته همس خالد:

ـ وأنا... سأكون هنا حين تستيقظ.

استيقظتُ قبل طلوع الشمس بقليل.

شعرت بثقلٍ يجثم على صدري، وكأن الليل لم ينتهِ بداخلي بعد.

غسلت وجهي، لكن ملامحي بقيت متعبة، وعيناي محمرّتَين

كأنهما لم تنميا منذ أسبوع.

حين خرجتُ إلى الخارج، كانت المحطّة تستعد ليوم جديد، أصوات

الشاحنات، وصدى الحديد، ورائحة الوقود...أشياء أعرفها جيدًا،

لكنها اليوم بدت غريبة عني.

وقفت أمام البوابة لحظة طويلة، أفكر:

ـ هل أستطيع العمل حقًا؟

ـ هل أستطيع أن أعود كأن شيئًا لم يحدث؟

ثم جاء صوت خالد في داخلي، متملّكًا... ساخرًا... واثقًا:

ـ ادخل يا آسر، هذا عالمك... وهذا جسدك...أو نصفه على الأقل.

قبضتُ يدي بقوة، ثم دفعت الباب ودخلت.

كان الجميع منشغلًا بأعمالهم، لا أحد يعلم شيئًا.

لكن المديرة حين رأتني، رمقتني بنظرة صارمة، نظرة تقول:

لقد عدت...وهذه فرصتك الأخيرة، لم تقولها ولكني احسست ذلك نظراتها تقول كل شي.

وقفتُ أمامها، وقلت بصوت حاولتُ أن أجعله ثابتًا:

أنا... سأبدأ عملي الآن.

هزّت رأسها دون كلمة، ثم أشارت نحو العمل.

ومع الخطوة الأولى التي مشيتها في ساحة المحطّة...

شعرت بأن يومًا جديدًا بدأ...لكن داخلي لم يكن جديدًا أبدًا.

كان شيئًا آخر يتشكّل...شيئًا تغيّر..شيئًا لا أعرف إن كنت أستطيع السيطرة عليه..أو إن كان خالد سيتركني أسيطر أصلًا.

بدأتُ عملي وأنا أشعر أنّ الأرض التي أقف عليها ليست نفسها، كأنها أضيق ممّا اعتدت... أو كأن شيئًا في داخلي أصبح أكبر من المكان.

توجّهت نحو المنطقة الخاصة بالميكسر، والعمال من حولي يرفعون الخرسانة، يصبّون، يكبسون، كلٌّ منشغل بما بين يديه.

أمسكت الأدوات وبدأت العمل، لكن يدي كانت ترتجف قليلًا... ليس من الخوف، بل من شيء آخر... شيء يشبه أثر النار التي لم تنطفئ بعد.

كنت أريد أن أعمل بصمت، أن أندمج في تفاصيل اليوم كي أنسى، لكن الأصوات من حولي بدت أعلى من المعتاد، كأن كل شيء يصرخ في وجهي:

أنت لم تعد كما كنت.

وفي اللحظة التي بدأت بتكسير الخرسانة العالقة على طرف الميكسر، جاء صوت أحد العمال بجانبي:

ــ آسر... انت بخير؟ وجهك يبدو... مختلف اليوم.

أجبته سريعًا:

ــ بخير... فقط لم أنم جيدًا.

لكن الحقيقة كانت أنني لم أنم على الإطلاق.

واصلت عملي، وكنت أضرب الخرسانة بقوة لم أعتدها، حتى إن زميلي قال ضاحكاً:

ــ من يراك منذ دقائق، والان يقول إنه كان نايم طول العمل والآن أستيقظ .

لم أرد.

داخل رأسي، كان خالد يراقب.

لم يتدخل... لم يعلّق... لكنه موجود، شعور حضوره كان كالحجر الموضوع فوق صدري.

وبينما كنت أرفع المطرقة الثقيلة، قال لي خالد بصوت خافت داخلي:

اهدأ... أنت تعمل بشكل خاطئ... دع كتفك ثابتًا... هكذا...استعمل تفكيرك ليس جسدك فقط .

وتحرّكت يدي تلقائيًا كما قال، كأن جسدي يعرفه أكثر مما يعرفني.

قلت له داخليًا، وأنا أضغط على أسناني:

لا تتدخل... هذا وقتي أنا.

فردّ ببرود:

أراقب فقط، لن ألمس شيئًا... إلى الآن.

قضيت ساعات العمل كأنها أيام طويلة.

لم يكن هناك خطأ واحد، ولا كلمة زائدة، لكن كل ثانية كانت تُشعرني بأن شيئًا من داخلي يغلي.

وحين اقترب انتهاء اليوم، كانت الشمس في طريقها للغروب، والعمال بدأوا بجمع الأدوات.

وقفت أتأمل الأرض، كأنني أحاول تذكّر نفسي قبل كل ما حدث.

فجأة... قال خالد:

ـ انتهى وقتك يا آسر.

شعرت بصدري ينضغط، كأن الهواء الذي أتنفّسه لم يعد يدخل بسهولة.

حاولت التماسك:

ـ ليس الآن... ما زال هناك وقت لانتهاء العمل.

ضحك خالد:

ـ الوقت لا تعنيني.

ـ الغروب هو إشاري...ومع الغروب... يبدأ عالمي.

أغمضت عيني لحظة...فتحتها...ووجدت نفسي لا أشعر بجسدي كما ينبغي.

كنت ما زلت واقفًا... لكن الخط الفاصل بيني وبين خالد صار أضعف.

حين اكتمل تبدّلي مع خالد، شعرتُ أن شيئًا ما يُسحب من داخلي ببطء، وكأن روحي تنفلت من أطراف أصابعي، تتراجع إلى مكانٍ لا أعرفه. لم أدرك متى اختفى العالم الحقيقي من حولي، ولا متى انطفأت الأصوات والضوء، لكن فجأة وجدت نفسي في عالمٍ تبدو خطواتي فيه بلا وزن، وكأنني أسير فوق صفحة ماءٍ هادئة لا تنكسر.

كان الضباب الأبيض يحيط بي من كل جانب، يتحرّك ببطءٍ كأنّه يتنفّس. ورغم الغرابة، لم أشعر بالخوف، بل بشيء يشبه السكون

العميق... الهدوء الذي يسبق الاعتراف، أو الهدوء الذي يأتي حين لا يبقى لك قوة لتقاوم نفسك.

كنت أتقدّم دون أن أعرف إلى أين، لكن إحساسًا ما كان يقودني، إحساس يشبه النداء الخافت الذي لا يُسمع بالأذن، بل يُشعر به في القلب.

ومع كل خطوة، بدأ الضباب يتراجع قليلاً... حتى ظهرت أمامي تلك الساحة الصغيرة التي أعرفها.

نعم... أعرفها.

رغم أنّي لم أرها يومًا في حياتي، لكنّ قلبي كان يتعرّف عليها قبل عينيّ.

وفي وسط الساحة... كانت ليان.

كانت تقف هناك كما لو أنها تنتظرني منذ زمن طويل، ثوبها الأبيض يشبه الضوء أكثر مما يشبه القماش، وشعرها منسدل بلا

حركة، كأن الهواء يخجل من لمسها. وحين رفعت وجهها نحوي، شعرتُ بشيء يشبه الاختناق... كأن أحدًا ضغط على صدري لحظة واحدة ثم تركه.

لم تقل شيئًا، ولم أستطع أنا الكلام أيضًا.

كل ما فعلته هو أنني تقدّمت خطوة صغيرة... لكنها بدت لي أطول خطوات حياتي.

شعرتُ بأن هذا المكان ليس مجرد عالمٍ غريب... بل عالمٌ صُمّم لتُقال فيه الأشياء التي لم أستطع قولها، وتُسمَع فيه الجروح التي لم يجد لها أحد مكانًا في الدنيا.

وحين أصبحت قريبًا منها بما يكفي لرؤية ارتعاشة عينيها، قالت بصوتٍ لا يشبه أصوات البشر:

ـ آسر... لماذا تأخرت؟

توقفتُ، وكأن هذا السؤال كان الباب الحقيقي للعالم كله. شعرت أن كل ما أهرب منه في الحياة يقف خلف هذه الجملة، وكل ما أبحث عنه يقف أمامها.

فتنفستُ ببطء، كأن الهواء نفسه ثقيل، وقلت بصوتٍ بالكاد خرج من حلقي:

ـ لم أكن توقع أن نتقابل هنا بعد الذي حصل .

عندها فقط... شعرت أن عالم اللاوعي ليس له دخل بالحقيقة، وأن وجود ليان هنا ليس صدفة، بل بداية لشيء أعمق مما كنت أتصوّر. حين قالت لي لماذا تأخرت؟ شعرتُ كأن العالم كله توقف ليسمع إجابتي، وكأن الضباب من حولنا ينتظر الكلمة التالية ليبدأ في الحركة من جديد. كنت أظن أنني سأرتبك، أو سأحزن، أو سأستعيد كل ما جرى... لكن الغريب أنني لم أشعر إلا بالهدوء، الهدوء الذي لا أعرف مصدره.

اقتربتُ خطوة أخرى، حتى صار بيني وبينها مسافة لو مددت يدي لامست كتفها، ومع ذلك شعرتُ أن هناك شيئًا شفافًا، حاجزًا ناعمًا، يمنعني من الوصول إليها تمامًا.

قلت لها بصوت منكسر:

ـ كنت أعلم أن السحر لم يكن الطريق الصحيح، لكنني لم أجد وسيلة أخرى لأكون بقربك، كنتِ دائمًا تُنهين الحديث بيننا، ودائمًا تبتعدين كلما حاولت الاقتراب، حاولت كثيرًا أن أجعلك تحبّينني كما أحببتك، لكن الألم كان يزداد كلما أدركتُ أنك لا تبادلينني مشاعري، ليس أفضل مني ذلك الذي وافق والدك عليه، لكنّي كنت الأقرب إليك... الأقرب من أي أحد آخر، بحثتُ عنك كثيرًا؛ حتى وأنا لا أراك... كنتُ دائمًا أبحث، وكنت أعلم أنني قد لا أجدك، ورغم ذلك ظللت أحاول، وكأن شيئًا خفيًا يدفعني نحوك مهما ابتعدتِ، ولو عاد بي

الزمن مرة أخرى... لاخترت الطريق نفسه، وارتكبت الذنب ذاته، فقط لأكون قريبًا منك ولو للحظة واحدة.

نزلت عيناها إلى الأرض، كأنها تستمع لكلمة تعرف معناها جيدًا، ثم رفعتها من جديد وقالت:

ـ لكنّك اخترت طريقًا الخطأ.

كلماتها اخترقت صدري ببطء، كأن كل حرف منها يعيد فتح جرحٍ لم يلتئم أبدا، وإنني لم أختر شيئًا أصلًا قلبي الذي اختار ذلك طريق... لكني شعرت أن هذا العالم لا يقبل الأكاذيب، وأن أي كلمة مزيفة ستسقط مني قبل أن تصل إليها.

فقلت لها بالحقيقة التي حاولت دفنها:

ـ لأنني كنتُ خائفًا، خفتُ من خسارتك وظننت أن هذا الحل الوحيد لاقترب منك... فخسرتك.

ـ وخفتُ من مواجهة أهلك... فواجهوني وحدي.

وخفتُ من الاعتراف... فاعترفتُ الآن فقط، بعد فوات كل شيء.

سقطت جملة "بعد فوات كل شيء" من فمي كأنها حجر يمسّ سطح الماء، وفور سقوطها... بدأت الأرض من حولنا تتحرّك، والضباب يدور ببطء. شعرتُ كأن عالم اللاوعي يتفاعل مع مشاعري، يعيد تشكيل نفسه حسب اعترافي.

ليان بدت مرتبكة للحظة، ثم تنفّست بعمق وقالت:

ــ آسر... هل أتيتَ لتعتذر؟ أم لتلومني؟

نظرتُ لها، وحاولت أن أجد في عينيها أثرًا للغضب أو الكره... ولم أجد. كل ما رأيته كان شيئًا يشبه الحزن الذي يحمل ملامح شخصين لا شخصًا واحدًا.

فقلت:

ـ أتيتُ... لأن روحي سقطت إلى هذا المكان عندما لم أعد أملك شيئًا... وعندما أردتُ أن أفهمك، قبل أن أفهم نفسي.

اقتربت مني، خطوة صغيرة، لكنها بدت كأنها اختصرت بيننا سنوات. ثم قالت بصوت خافت:

أنا أيضًا لم أفهم نفسي...لم أعرف لماذا كنت أهرب من اسمي كلما سمعتُه منك...

ولم أعرف لماذا كنتُ أحلم بك في كل ليلة ولا أستطيع أن أقول لك ذلك.

ارتفع قلبي في صدري بقوة، كأن الاعتراف منها أضاء زاوية مظلمة داخلي كنت أعيش فيها وحدي. أردتُ أن ألمس يدها، أردتُ أن أقول لها إن كل شيء كان يمكن أن يُصلَح... لكن في اللحظة التي هممتُ فيها بالمحاولة...اهتز الهواء من حولنا فجأة.

الضباب انكمش بسرعة، وكأن العالم ينهار. كانت ليان ما تزال تقف أمامي، لكنها بدأت تبتعد دون أن تتحرك، كأن الأرض تسحبها ببطء.

صرختُ دون أن أشعر:

ــ ليان!

ــ انتظري!

ــ أنا لم... أكمل بعد!

رفعت يدها، وحاولت أن تصل إليّ، لكن المسافة بيننا اتسعت، وصوتها صار بعيدًا:

ــ آسر... العالم الحقيقي يناديك...اختر... اختر قبل أن تُغلق الأبواب...وامتلأ المكان بضوء أبيض شديد، حتى لم أعد أرى شيئًا، ولم أعد أشعر إلا بانسحاب روحي من هذا العالم كما لو أن شيئًا يمسك بي من الخلف ويعيدني بقوة.

وفي اللحظة الأخيرة... قبل أن يختفي كل شيء، سمعتها تهمس:

ـ لا تتأخر... مرة أخرى.

ثم انطفأت الصورة،عاد الوعي إليّ كأنني أخرج من أعماق الماء، أتنفّس بصعوبة، الهواء ثقيل في صدري، وجسدي بارد كأنني غائب عنه منذ زمن. لم أفتح عيني فورًا؛ كنت أشعر بأن العالم الحقيقي يضغط عليّ من كل الجهات.

ثم سمعت صوت خالد... ليس همسًا، بل حضورًا كاملًا يثقل رأسي من الداخل:

ـ عدتَ أخيرًا. كان يجب أن أوقظك وإلا كنت ستُغلق هناك.

فتحتُ عيني ببطء. وجدت نفسي في زاوية المحطة، ملقى على الأرض، ظهري مسنود إلى الحائط، وأنفاسي متقطعة. الليل كان صامتًا، والضوء الأصفر الخافت للمصابيح يعكس ظلّي وكأنه شخص آخر غيري.

وضعت يدي على صدري لأتأكد أنّ جسدي ما زال هنا... حقيقيًا... ثقيلًا.

قلت بصوت منخفض:

ـ ليان كانت... كانت تناديني. لم ترد أن أرحل.

أجاب خالد ببرود ثابت:

ـ العالم الذي تُحبّه ليس عالمك. عالم اللاوعي لا يبقى مفتوحًا لمن يتردد. لو تأخرت ثانية واحدة كنت ستظل محبوسًا فيه، ولن أستطيع جلبك.

أغمضتُ عيني، وشعرت بحرارة تتجمع خلفها. كانت كلمات ليان الأخيرة تدور في رأسي كأنها نجمة تحترق:

"لا تتأخر... مرة أخرى."

فسألته وأنا أشعر بأن الأرض تبتعد قليلًا:

ـ لماذا سحبتني بالقوة؟ كنت أريد البقاء معها.

قال خالد:

ـ لأنك لو بقيت... لما عدت. ولأن دورك لم ينتهِ بعد في هذا العالم.

ولأنني... لا أريد أن أفقد الجسد الذي نتشاركه.

نظرت إلى يدي... وإلى خط التوتر المرتعش في أصابعي. بين عالمين، بين حياتين، بين حقيقة وحلم... كنت أشعر أنني لستُ آسر الذي كنتُ أعرفه.

قلت بمرارة خفيفة:

ـ أشعر كأنني ضائع... لست هنا، ولست هناك.

رد خالد:

ـ أنت في المنتصف، وهذا أخطر مكان يمكن للإنسان أن يقف فيه.

وقفت بصعوبة، ومسحت الغبار عن ملابسي. كانت المحطة خالية إلا من صدى خطواتي وصمت لم أعد أعرف إن كان يخصني أم يخصّه.

ثم قال خالد فجأة:

ـ استعد. لم يبقَ وقت كثير... والأبواب لن تبقى مفتوحة لنا إلى الأبد.

قلت له وأنا أحاول استعادة توازني:

ـ خالد... لماذا بدا عالم اللاوعي مختلفًا هذه المرة؟ كان باهتًا... وكأن حضورها يذوب شيئًا فشيئًا.

أجابني بهدوء، دون أن يظهر عليه أي قلق أو ارتباك:

ـ الأمر بسيط يا آسر... السحر الذي كان يقوّي حضورها في خيالك انحلّ تمامًا. لم تعد تملك القدرة على السيطرة على صورتها داخلك إلا بما تشعره أنت فقط... لم يعد لها أي تأثير مباشر.

توقّفت للحظة، وشعرت بجملة ثقيلة ترتفع داخل صدري، ثم قلت بصوت منخفض، لكنه ينكسر شيئًا فشيئًا:

ـ إذا... كل ذلك كان وهمًا؟ كل حضورها... كل رؤيتي لها... مجرد بقايا شعور؟

رفعت بصري إليه، وأكملت بمرارة لا يمكن هزيمتها:

ـ هل يعني هذا... أنني لن أراها مجددًا؟

نظر إليّ خالد نظرة تحمل شفقه، ثم قال:

ـ رؤيةً واضحة كما كانت... لن تعود. حضورها الآن مرتبط بك وحدك، بما تبقّى من أثرها في قلبك. إن خفتَ من فقدانها... ستتلاشى أسرع. وإن تمسكت بها شعورًا لا صورة... فقد تبقى أطول مما تتوقع.

كلماته وقعت في داخلي كصوت باب يُغلق خلفي ببطء، ومعه أدركت أن الطريق الذي أمامي لم يعد يشبه الطريق القديم... وأن عليّ أن أقرر كيف سأمشيه دونها، أو بما تبقّى منها.

وبينما كنتُ أستمع إلى كلمات خالد وأحاول استيعاب معنى فقدانها الحقيقي، اهتزّ جيبي بنغمة هاتفٍ اخترقت السكون من حولي. نظرت إلى الشاشة... كان اسمه يظهر واضحًا، صديقي الأقرب، الشخص الوحيد الذي بقي لي صلة بالعالم الحقيقي بعد أن انقطعت كل الطرق.

ضغطت زرّ الإجابة، ولم أتمكن حتى من قول مرحبًا قبل أن يأتي صوته المرتجف، صوت رجل حاول أن يكون ثابتًا لكنه لم يجد ما يستند إليه:

ـ آسر... أنت الذي قتلت زوجها... صحيح؟

لم أحاول الهرب من السؤال، ولم أجد سببًا واحدًا يجعلني أكذب.

رفعت رأسي قليلًا، وقلت بصوت خافت لكنه ثابت:

ـ نعم... أنا فعلت. ولن يأخذها غيري مهما حدث.

ساد صمت قصير في الطرف الآخر... صمت رجل أدرك حجم الكارثة التي سقطنا فيها. ثم قال بنبرة صارمة، كأنه يحاول أن يسحبني من حافة هاوية:

ـ إذًا اسمعني جيدًا... إن تحدّث معك أحد، فلتُنكر كل شيء. قل إنك لم تأتِ إلى البلد منذ يوم طردك من البيت. لقد استجوبوني أنا أيضًا... وسألوني عنك... وأنكرت حضورك تمامًا.

شعرتُ بنبض صدري يشتد، فقلت له:

ـ وماذا حدث بعد أن... غادرتُ المكان؟

تنفّس صديقي بعمق، وكأنه يجرّ حدثًا ثقيلًا من صدره:

ـ عندما طعنتْ زوجها وهربت... أغمي على ليان فورًا. كانت صرخات في كل مكان... وضجيج كأن الدنيا انقلبت. حملوها إلى المستشفى، وأجروا لها عملية عاجلة.

توقّف، وكأن الكلمات تخونه، ثم أكمل بصوت مكسور:

ـ قلبها توقّف يا آسر... توقّف... وماتت.

شعرتُ بالأرض تُسحب من تحتي، كأن الهواء يصبح ثقيلاً لا يمكن ابتلاعه. لم أستطع الكلام، ولم أجد أي كلمة تُعادِل وقع هذه الجملة.

لكن صديقي لم يتوقف... وكأن الحقيقة تريد أن تكتمل رغماً عن كل شيء:

ـ وحتى زوجها... مات من نزيفه.

ثم أضاف بعد لحظة صمت خافتة:

ـ الطبيب قال إن ليان كانت تعاني مرضًا خبيثًا في القلب... شيء لم تكن تخبر أحدًا به. ربما كانت تخفيه... وربما لم تكن تعرف.

أغلقت عينيّ، وشعرت بأن العالم ينهار بصوت لا يسمعه غيري.

اللعنة التي ظننتُ أنها ستجلبها إليّ... ابتلعتنا نحن الاثنين.

* * *

قبل زواج ليان في أحداث سابقة:

بعد فترة من فكّ السّحر عن ليان، بدأت ملامح حياتها تتبدّل ببطء، وكأن شيئًا خفيًّا كان يُعاد ترتيبه في الخفاء. لم تعد تلك الخيوط التي كانت تربطها بآسر حاضرة كما كانت من قبل، ولم يعد حضورها في عالمه الداخلي بالقوة نفسها. ومع ذلك... ظلّ هاتفها يحمل أثره الأخير: رسالة قديمة من آسر، بقيت في ذاكرتها كما لو كانت شاهدة على كل ما كان بينهما.

وفي ذلك الوقت، كان والد ليان قد اتخذ قرارًا لم يخبر أحدًا بحقيقته. كان يرى أن وجود آسر في حياتها... حتى بعد أن ابتعد... صار خطرًا يجب أن يُزال. أراد أن يقطع آخر خيط يربطهما، خيطًا كان أكثر صلابة من الهواء وأكثر قسوة من الفراق.

قرر أن يزوّج ليان... زواجًا لا يشبه الزواج.

اختار لها شابًا من أقارب أمها، شابًا مطيعًا، لا يرفع نظره ولا يسأل عن شيء. وحين جلس معه، أخبره والد ليان بشروطٍ صارمة لم يسمع مثلها من قبل:

أن يكون الزواج بلا اقتراب... بلا علاقة... بلا أي شيء يمكن أن يربط بينهما كزوجين.

زواجٌ بالاسم فقط... غايته أن ينسى آسر ليان، وأن يتوقف هذا الخيط المريض الذي يربطهما.

ثم كشف له الحقيقة التي لم يعرفها أحد خارج البيت:

أن الطبيب أخبرهم أنّ ليان لن تعيش طويلًا... وأن مرض قلبها يزداد سوءًا كل يوم، وأن أي صدمة أو اقتراب أو علاقة زوجية قد تُنهي حياتها فورًا.

نظر الشاب إلى والدها برعب، لكن الأخير أكمل بصرامة لا تترك مجالًا للتردّد:

ـ ستتزوجها... وتبقى بجانبها حتى يأذن الله بما كتب. ولا تقترب منها قيد شعرة. إنها أمانة... وإن خالفت ما أقول فستكون مسؤولًا عن موتها.

لم يكن الزواج لأجل ليان... بل لأجل كسر آخر أمل كان يربط قلب آسر بقلبها.

هكذا رأى والدها الأمر... وهكذا ظنّ أنه يحمي ابنته من صراعٍ لم يعد يفهمه أحد.

أما ليان... فلم تكن تعلم أنّ قرار حياتها الأخير اتّخذ عنها بصمت، وأن قلبها، الذي يخونها كل يوم، سيكون هو الحكم في النهاية.

* * *

حين أنهى صديقي المكالمة، لم أستطع أن أتحرك. بقيت واقفًا في منتصف الغرفة، كأن الهواء تجمّد من حولي. كلماته كانت واضحة... قاطعة... مؤلمة أكثر مما توقعت:

ـ ليان ماتت.

ـ ومات زوجها.

ومات كل شيء أصبح يربطني بعالم كنت أحاول التمسّك به أنا الذي قتلتهم بيدي.

شعرت بأن الأرض تحت قدمي تتراجع، وكأنني أقف فوق فراغ لا نهاية له. جلست على طرف السرير، ووضعت رأسي بين يديّ، أحاول أن أتنفس دون أن ينهار قلبي.

لم أسمع صوت خالد... لكنني شعرت به. حضوره كان أثقل من أي شعور آخر، كأنه يجلس بجانبي دون أن يلمسني.

قال بصوت يعرف ما بداخلي قبل أن أنطقه:

ـ أرى انهيارك... أراه كله. غضبك، حزنك، وذاك الفراغ الذي يبتلعك من الداخل.

رفعت رأسي ببطء، وعيناي لم تعودا تشبهان عينيّ. شعرت كأن أحدهم كسرني من الداخل وترك القطع تتناثر كما تشاء.

قلتُ بصوت مبحوح، لا يشبهني:

ـ خالد... هل يمكنك أن تمسح ذاكرتي. كل شيء. لا أريد اسمها... ولا صورتها... ولا حتى لحظة واحدة منها أن تستطيع فعلها افعلها.

ساد صمت ثقيل... ثم رد خالد بصوت منخفض:

ـ أنت تطلب أكثر ما يمكن أن يطلبه بشرٌ منّي. أن امسح ذاكرة إنسانًا من داخلك... لا يمكنك حتي تذكر اي شي من حولك. هل تفهم ما تقول؟

أغلقت عيني للحظة، ثم قلت:

ـــ أفهم... وأريد ذلك.

تنفست بعمق، وكأنني أعترف لنفسي قبل أن أعترف له:

ـــ لو بقيت أتذكرها... سأموت يا خالد. الأمر ليس حزنًا... إنه شيء يذيب روحي. امسحها... كلها... كأنها لم تكن هي والذي حدث.

اقترب خالد، وشعرت بثقله يتمدد في الغرفة، يضغط على الهواء وعلى صدري.

ـ إذا محوتها... لن تراها في الحلم، ولن تشعر بها في عالم اللاوعي وقد لا تتذكره اصلاً، ستختفي منك ومن عالمك. كأنك لم تحب... كأنها لم تمرّ في عمرك.

فتحت عيني، وواجهته بنظرة رجل لم يعد يملك ما يخسره:

ـ هذا ما أريده.

سمعت خالد يتنفس ببطء، ثم قال:

ـ حسنًا... لكن ما يُنسي لا يعود. وإن فقدت شيئًا آخر معها... فلن

أستطيع استعادته لك. هذه المرة... القرار لا رجعة فيه.

مدّ يده نحوي، ولم تكن يدًا بمعنى اليد... كانت ظلًا ثقيلًا يقترب من

عقلي... من ذاكرتي... من قلبي.

ـ أغمض عينيك، ودعني أحاول .

أطعت.

أغمضت عيني... وتركت جسدي يغرق في العتمة.

وفي اللحظة التي لامست فيها يد خالد عقلي... شعرت كأن بابًا

داخليًا يُفتح، وبأن شيئًا عميقًا ينتزع منّي... شيئًا كنت أظن أنّه أنا.

وهنا بدأ كل شيء يتغيّر.

استيقظت.

لم أعرف أولاً أين أنا... ولا لماذا أشعر بهذا الثقل في رأسي كأن شيئًا

كان يحاول العودة ثم فشل. جلست ببطء، وضعت يدي على جبيني،

وراقبت تنفسي الذي بدا بطيئًا وغريبًا، كأن صدري يحاول أن يتذكر شيئًا... لكنه لا يجد ما يتمسك به.

نظرت حولي.

الغرفة التي كنت فيها لم تكن مألوفة، لكنها لم تكن غريبة أيضًا.

مجرد غرفة... بدون أي شعور، بدون أي ذكرى مرتبطة بها.

وقفت.

لم أشعر بفقدان شيء محدد.

بل شعرت بفقدان مساحة كاملة من داخلي... مساحة فارغة تمامًا، بلا اسم، بلا ذكرى، بلا صورة.

كنت أعلم أن خالد فعل ما طلبته.

أعرف ذلك رغم أنني لا أتذكّر اللحظة نفسها.

تهامس صوته في عقلي، ثابتًا... هادئًا... كأنه يطمئنني:

ـ قمتُ بما رغبت. أزلتُ ما كان يؤذيك... كل ما كان يربطك بما كُنتَ تريد الهرب منه.

لم أسأله ماذا محا.

ولا مِن مَن كنت أهرب.

كنت فقط أشعر بصفحة بيضاء في مكانٍ كان يمتلئ بشيءٍ ما.

شيء لا أعرفه... ولا أريد أن أعرفه.

قلت له داخليًا بصوت خافت:

ـ هل... بقي شيء؟

أجابني بصراحة لا تخلو من البرود:

ـ تركتُ ما تحتاجه لتستمر. ذكريات العمل، الطريق، الشخصيات الأساسية في حياتك... و... اتفاق الجسد. هذه الأشياء لا يمكن محوها، وإلا أصبح عقلك بلا جذور.

أومأت، دون أن أعرف لماذا شعرت أن ذلك منطقي.

سحبت نفسًا عميقًا.

كان هناك إحساس غريب... كأن شيئًا اختفى من صدري تحديدًا.

فراغ...مجرد فراغ.

لكن لم يكن هناك ألم، ولا اسم، ولا وجه.

كأن جزءًا كاملًا من حياتي... تمت إزالته بممحاة لا تحمل رحمة ولا ندمًا.

لم أعد أشعر بأنني فقدت أحدًا.

لم أعد أشعر بأن شيئًا ناقص.

بل شعرت بأنني أنا... شخص جديد، يقف على أطلال شيء لا يعرفه.

خالد قال بعدها:

ـ الآن... تستطيع أن تعمل، تعيش، وتتنفس بدون ذلك الثقل. أنت خفيف... وهذا ما طلبته.

وقفت أمام المرآة.

رأيتني... لكن لم أعرف لماذا تبدو عيناي تائهتين قليلًا، كأنهما تبحثان عن شيء كان موجودًا... لكنه تبخر.

لم أحاول إجابة هذا السؤال.

رفعت رأسي وقلت لخالد:

ـ حسنًا. لنبدأ من جديد.

وردّ بصوتٍ ثابت:

ـ من هذه اللحظة... أنت وأنا فقط. لا شيء يشدك للخلف.

خرجت من الغرفة، وكنت أشعر أنّ جسدي يمشي بلا خوف...لكن بداخلي شيء آخر كان يراقب خطواتي الأولى...خطوات رجل وُلِد من جديد دون ماضٍ يرتبط بقلبه.

وفي اليوم التالي، استيقظتُ كعادتي، لكن شيئًا داخلي كان مختلفًا...

شعرتُ بخفةٍ غريبة في رأسي، كأن عبئًا هائلاً قد أزيح عن كتفي دون أن أعرف ماهيته. ذهبتُ إلى عملي، أؤدي مهامي بهدوء وانضباط، ولاحظتُ أن خطواتي أصبحت أكثر اتزانًا، وأن صدري لم يعد يضيق كما كان في الأيام الماضية.

ومع مرور الساعات، أدركتُ أنني صرتُ أبتسم دون سبب واضح. لم يكن هناك شيء محدد يدفعني لذلك، فقط شعور صافٍ بأن روحي تحررت من ثقلٍ طويل. في المساء، جلستُ مع رفاقي في المكان المعتاد. تبادلنا الأحاديث والطرائف، ووجدتُ نفسي أضحك معهم بصدق، كما لم أفعل منذ زمنٍ لا أتذكره.

كانوا ينظرون إليّ بدهشة خفيفة، أحدهم قال مبتسمًا إنني تغيّرت كثيرًا في يومٍ واحد. لم أملك تفسيرًا أقدمه لهم؛ فأنا نفسي لم أجد جوابًا واضحًا لما أشعر به. كل ما أعرفه أنّ فراغًا واسعًا في داخلي

قد امتلأ بصمتٍ مريح، وأن ذكريات كثيرة بدت كأنها غُسلت من عقلي، تاركةً خلفها أثرًا باهتًا لا أعرف مصدره.

وفي نهاية اليوم، عدتُ إلى غرفتي. ألقيتُ جسدي على السرير، وأغمضتُ عينيّ بلا صراع داخلي، بلا تلك الأفكار التي كانت تجرّني نحو الظلام كل ليلة.

نمتُ سريعًا، وكأنني وجدتُ أخيرًا السلام الذي كنت أبحث عنه دون أن أعرف لماذا.

مرت الأيام التالية هادئة، منتظمة، كأن حياتي صارت صفحة بيضاء أخيرًا.

كنت أستيقظ، أعمل، أعود إلى البيت، ثم أترك لجسدي أن يسترخي... وهناك، في اللحظات التي يخفّ فيها وعيي، يتقدّم خالد ليأخذ مكانه.

كان الأمر جزءًا من اتفاق قديم... اتفاق لم أعد أتذكر أسبابه، لكن جسدي يلتزم به كما لو كان مكتوبًا على جلدي.

كنت أتركه يدخل، يشغلني، يتحرك بي كما يشاء، ثم يعود إلى صمته حين يحلّ الصباح.

لكن شيئًا ما بدأ يتغير داخلي؛ شيء يشبه ضيق المكان على ساكنين.

وفي مساءٍ بعيد، بينما كنت أستعد للنوم، ظهرت رغبتي واضحة لأول مرة. قلت له:

ـ خالد... أريدك أن تغادر جسدي الليلة.

ساد صمتٌ طويل... صمتٌ شعرتُ فيه ببرودة الهواء تتبدل. ثم جاء صوته من الأعماق، هادئًا، لكنه مشدود كوتر:

ـ لا أستطيع يا أسر. الاتفاق بيننا ما زال قائمًا. وجودي هنا جزء من حياتك... كما اتفقنا.

لم أدرِ لماذا شعرتُ فجأةً بغضبٍ خفيف، كأنه ظلّ لذكرى لا أعرفها. قلت له:

ـ لكنني لا أريدك في حياتي بعد الآن. لا أريد أن يشاركني أحد جسدي.

تردّد قليلًا... ثم قال بنبرةٍ أقرب إلى التحذير:

ـ البحث عن مخرج لي ليس أمرًا بسيطًا. المتاعب التي ستأتيك بعدها... قد لا تُعجبك يا أسر. أنت لا تعرف تمامًا ما الذي سيحدث لو انفصلتُ عنك.

شعرتُ أن قلبي يخفق كأن هناك شيئًا يرفض شيئًا آخر دون أن أعرف السبب.

لكنني حسمتُ أمري، وكأن قرارًا قديمًا كان ينتظر أن أنطقه:

ـ لا يهم. مهما كلّف الأمر... أريدك أن تخرج. لا أريد مشاركتك لحياتي بعد اليوم.

ساد صمت ثانٍ... أطول من الأول، وأكثر ثقلاً.

ثم جاء صوته، منخفضًا، كأن العالم كله ينصت:

ـ إذن... ابدأ بالبحث يا أسر. لكن تذكّر... البعض حين يطرد ظله، لا يعود يعرف نفسه.

كلماته بقيت تدور في رأسي طوال الليل، كأنني بدأت أخوض معركة لم أعرف متى بدأت... ولا ضد من.

بدأتُ أبحث.

منذ تلك الليلة التي صار فيها وجود خالد داخل جسدي عبئًا لا أطيقه، صرتُ أقضي ساعاتي بعد العمل بين الكتب القديمة، والمخطوطات التي لا يعرف مصدرها أحد، وصفحاتٍ على الإنترنت لا يدخلها إلا مَن يبحث عن شيءٍ خارج حدود المنطق.

كنتُ أقرأ عن العُقد، وعن الأرواح التي تلتصق بالأجساد، وعن طرق الفصل... وكلما تعمّقتُ في التفاصيل، ازداد يقيني أن ما بيني وبين خالد ليس أمرًا بسيطًا، وأن خروجه من جسدي ليس مجرّد كلمة أقولها.

وفي إحدى الليالي... وجدت الطريقة.

طريقة قديمة، خطيرة، لكنها الوحيدة التي بدت ممكنة.

لم أتردّد. أخبرته بها فورًا.

ظهر صوته في رأسي بوضوح، كما لو أنه يقف بجانبي:

ـ أسر.. إن كنتَ مصرًّا على هذا الطريق، فامنحني ثلاثة أيام فقط. ثلاثة أيام أُنهي فيها ما بقي عليّ من ارتباطات... وبعدها سأخرج كما تشاء.

لم أجد سببًا لأرفض. وافقتُ.

وفي تلك الأيام الثلاثة، بدا خالد أكثر هدوءًا من أي وقت مضى...

كأنه يستعد لوداعٍ حقيقي.

وفي ثاني يوم كنتُ اكسر المكسر أعمل إلى جانب صديقي وخالد

الذي اعتاد أن يتحرك في جسدي خلال ساعات العمل الشاقة.

كان يحمل اداة تكسير الكبير، يضغط زر التشغيل، فيدور فيبدأ

بتكسير بسرعة مخيفة.

في تلك اللحظة، تحدّث فجأة... بصوتٍ داخلي لكنه بدا واضحًا

بشكل غريب:

ـ أسر... هل تعلم؟

توقّفتُ في داخلي، كأنني أحبس أنفاسي.

أجاب قبل أن أسأله:

ـ حتى لو اشتغل هذا المكسر الآن... وحتى لو كانت السكاكين

تدور أمام صدرك مباشرة... فإنها لن تمسكك.

لأن روحي ما زالت بداخلك... ولهذا نعبر معًا.

تصبح السكاكين بالنسبة لنا مثل الهواء... تمرّ من خلالي، ومن خلالك... كأننا ظلّ واحد.

شعرتُ بقشعريرة تمتد في ظهري.

رأيته، من الداخل ،يمدّ يده أكثر نحو المكسر، في حين تتابع السكاكين حركتها المجنونة.

كان المشهد مرعبًا... لكنه ظلّ واقفًا دون أن يمسه شيء.

ثم أكمل بهدوءٍ مخيف:

ـ لهذا قلت لك إن إخراجي لن يكون سهلاً يا أسر... ليس لأنني لا أريد، بل لأن جسدك تعوّد أن يعيش بروحين... وحين تنتزع واحدة منهما، يحدث ما لا يمكن التنبؤ به.

تراجعتُ داخلي خطوةً، وشعرتُ بخوفٍ لم أفهم مصدره.

كان خالد يبتسم ابتسامة أعرف أنها لا تظهر على وجهي من الخارج، لكنها كانت تظهر في داخلي ثم قال:

ـ ومع ذلك... سأخرج. كما وعدتك.

لكن عليك أن تكون مستعدًّا لما سيأتي بعدي.

وسكت...

كأن كل شيء في المحطة توقف معه.

عندما انتهى يومي في العمل، كنتُ أشعر بثقلٍ غير مفهوم، كأن الهواء من حولي ينتظر شيئًا لا أعرفه، نظرتُ في داخلي نحو خالد وقلت:

ـ غدًا... سيكون يومك الأخير يا خالد، سأمنحك جسدي كاملًا...

طوال اليوم، اعتبرها هديتي الأخيرة لك.

لم يعلّق كثيرًا، فقط أحسستُ باهتزازٍ خفيف في صدري يشبه ابتسامة ممتنّة.

ـ حسنًا يا أسر... غدًا إذن.

وجاء الغد...اليوم الأخير.

اليوم الذي يخرج فيه خالد من حياتي... أو هكذا كنتُ أعتقد، تركته يقود الجسد منذ الصباح.

كنتُ أراقبه من الداخل، كأنني روح ثانية محشورة في الظل.

كان يتحرك بخفة غريبة... وكأنه يحتضن جسدي للمرة الأخيرة.

وفي نهاية الدوام، وصلنا إلى آخر مهمة:

تكسير الخرسانة التي علقت بالسكاكين الحديدية للميكسر.

كان خالد يرفع باداة تكسير ويضرب بقوة، يضرب بها في الخرسانة المتحجرة، وأنا أراقب حركة عضلاتي التي لا أتحكم فيها.

صديقي في العمل كان بجانبه يساعده، وكل شيء كان يبدو طبيعيًا... هادئًا... عاديًا بدرجة مريبة.

عندما انتهينا من التكسير، صاح صديقي:

ـ أنهينا تكسير الخرسانة... فقط دقيقة ونبدأ الغسل.

نزل صديقي إلى الأسفل ليخبر المشغل المُكلّف بتشغيل المِكسر ثم صعد إلى مجدداً.

كنتُ أسمع خطواته تبتعد، وأرى المشغل يقترب من لوحة التشغيل.

وبقي خالد واقفًا أمام المِكسر... يحدّق في السكاكين التي بدأت تلمع تحت ضوء الغروب.

سمعتُ صوته داخلي... هادئًا على غير العادة:

ـ أسر... أتعرف ما المضحك؟

كنتَ تظن أنني سأخرج بهدوء... دون أن آخذ شيئًا معي.

شعرتُ بانقباضٍ مرعب يعبر صدري.

ـ خالد... ماذا تفعل؟

لم يجب.

رفع قدمي....قدمي أنا....ووضعها على حافة المكسر.

المشغل ضغط زر التشغيل.

ما زلتُ أذكر اللحظة التي لوّح فيها صديقي بيده وقال لي بصوتٍ مرتفع:

ـ ابتعد يا أسر.. سوف يشغّل المكسر الآن!

خطوتُ للخلف نصف خطوة... فقط نصف خطوة.

وما إن دارت السكاكين حتى ارتفع صوت الحديد يصرخ في الهواء، كأنه يفتح فمًا معدنيًا ينتظر فريسته.

وفي اللحظة نفسها...رأيت خالد يلتفت نحوي من داخل جسدي، بنظرة خالية من الرحمة... ثم قفز بي، بكل قوتي، بكل ثقلي، بكل وجودي... داخل المكسر.

صرختُ من داخله، من روحي المحاصرة فيه:

ـ خالــد!!! لاااا!!!

لكن صوته كان أعلى... أثقل... كأنه يقف فوق رأسي، يضغط على صدري، يسدّ الهواء عني:

ـ الآن يا أسر.. نستبدل الأماكن.

أنا إلى الخارج... وأنت... إلى موتك.

ثم شعرتُ بضربة غير مرئية... دفعة من الداخل... روحه تُقذف نحوي كتيار حاد، بينما أنا أُسحب إلى جسدي الحقيقي، أُجبر على العودة في اللحظة نفسها التي سقط فيها داخل فم الحديد.

ثانية واحدة... أقل من ثانية.

جسدي عاد... والسكاكين تدور... تقترب... تستقبلني بلا رحمة.

سمعت صوت صديقي يصرخ فجأة:

ـ أســــــــــــــر!!!

ـ أســـــر لا!

ـ أســـــر!!

كان يقف على طرف المِكسر، عينيه متسعتين حتى كادتا تنفجران، لا يعرف هل يقفز ورائي أم يهرب أم يميت هذا الكابوس.

لحظة صدمة... لحظة جمود...كأن الزمن ضرب رأسه وأوقفه مكانه.

ثم فجأة...قفز يركض نحو المفتاح في الأسفل، ينزلق، يتعثر، يصطدم بالأرض، ينهض من جديد والهلع يأكله:

ـ توقف... توقف... توقف!!!

يده كانت ترتجف لدرجة أنه لم يصب الزر من المرة الأولى.

وحين انطفأ صوت الحديد... حين توقف المكسر أخيرًا... ركض صديقي صعودًا وهو يلهث، يحاول أن يلتقط أنفاسه، يحاول أن يهيئ نفسه لِما سيراه.

لكن لا شيء هيّأه.

لأن ما انتظره في الأعلى...لم يكن أنا الذي عرفه.

ولم يكن بوسعه أن يصرخ...ولا أن يتكلم...ولا أن يفهم كيف انتهت الأمور في أقل من دقيقة.

في اللحظة الأولى، شعر بأن الهواء يُسحب من صدره بقوّة، كأن صدره أصبح فراغًا ينتظر الانفجار.

وعندما ارتطم بالجدار الداخلي، لم يكن الصوت الذي سمعه صوت ارتطام جسد، بل شيء أعمق...شيء يشبه انكسار رجلٍ في آخر حدود احتماله.

الظلام هناك لم يكن ظلامًا عاديًا؛ كان حيًّا.

كان يزحف حوله، يدخل بين ضلوعه، يتسرب إلى عقله، ويهمس له بصوت لا يشبه صوت البشر.

صوت يقول له إنه لن يخرج... ليس جسدًا، ولا عقلًا.

عندما بدأ المِكسر بالدوران ببطء، ثم تسارعت نبضاته الحديدية، وكأن الوحش في الداخل استيقظ.

مع كل دورة من دورات المِكسر، شعرتُ كأن قوة خفية تربطني من أطرافي وتشدّني في اتجاهات متعارضة، كأن شيئًا يحاول أن يمزّقني لأجزاء لا أملك الدفاع عنها.

كان الألم ينتشر بي مثل موجات، لكن ما أخافني حقًا لم يكن الألم الجسدي... بل الإحساس بأنني أفقد نفسي، وأن جزءًا من روحي يُسحب من داخلي في كل ثانية، كما لو أن الآلة لا تطحن جسدي فقط... بل وجودي كله.

حاولتُ الإمساك بأي شيء، بأي حافة، بأي ما قد ينقذني...

لكن كل محاولة كانت تُقابل بقوة أعنف، كأن العالم نفسه يرفض أن يبقى لي شكل أو صوت .

ثم بدأ صوت آخر يظهر فوق صوت الحديد...صوتي.

صرخة لم أعرفها من قبل، تخرج مني وتعود إليّ كأنها ليست صرختي... كأنني أسمع نفسي من مكان بعيد لا أستطيع الوصول إليه.

صار صدى العظام التي تتعرض للضغط كافياً ليجعلني أشعر بأن كل مفصل في جسدي ينكمش ويرتجف، وكأن الحياة تُنتزع قسرًا من أطراف أصابعي.

لم أعُد أرى شيئًا واضحًا.

الأصوات تلاشت.

والعالم انكمش إلى نقطة واحدة...نقطة كان فيها الألم يختلط بالخوف، والخوف يختلط بالاستسلام.

وفجأة...انطفأ كل شيء.

حين فتحتُ عيني، لم أكن داخل المِكسر..كنتُ واقفًا فوقه.

ورأيت جسدي أسفل مني...أو ما بقي منه.

أحسستُ بارتجافٍ داخلي، ليس خوفًا، بل صدمة هادئة، كأن عقلي يحاول أن يقنعني بأنني لا أنتمي إلى هذا المشهد، وأن ما أراه ليس أنا.

ارتفع صوت خلفي.

ـ لا تخاف يا آسر... لن يعود الألم بعد الآن فأنك مت وأصبحت روح مثلي.

التفتُ... كان خالد يقف بجانبي، بصورته الكاملة التي لم أرها من قبل، كأنه لم يعد مجرد صوت أو ظل في عقلي، بل شخصًا يواجهني للمرة الأولى.

قلت له بصوت متحشرج:

ـ إذاً... هذا أنت؟ هكذا يبدو وجهك؟

ابتسم ابتسامة قصيرة وقال:

ـ ألم تكن تراه دائمًا في داخلك؟

ـ كنت أشعر بك... لا أراك.

نظرتُ مجددًا إلى الجسد الذي فقد شكله.

سألته بهدوء مستغرب حتى من نفسي:

ـ لماذا... لماذا قتلتني بهذه الطريقة؟ لماذا لا أشعر بالكراهية تجاهك رغم ما فعلت؟

أجاب خالد بصوت منخفض:

ـ عندما طلبتَ مني الخروج... شعرتُ أنك تريد التخلص مني. وهذا... أعاد إليّ شيئًا قديمًا كنت أهرب منه. ظننتُ أن قتلك سيجعلني أشعر بشيء... أي شيء.

سكت قليلًا ثم تابع:

ـ ثم اكتشفتُ بعد فوات الأوان أنك... ستموت معي، لكي تشعر ما معنى ان تكون روح بلا جسد كما جعلتك تشعر بنفس الذي شعرت به عند موتي وبالمناسبة انا ايضا مت هنا في هذا المكسر، وما تراه الآن هو مجرد ما تبقى من جسدك.

وقفتُ صامتًا...لا ألم...لا صراخ.

سمعت فجأة صراخًا مدويًا قادمًا من غرفة التحكم بالمشغل.

هبطتُ أنا وخالد، روحين لا يرانا أحد، عبر السلالم بسرعة لم يكن للجسد أن يتحمّلها.

لم نكن نمشي... بل ننزلق عبر الفراغ، كأن الهواء نفسه يدفعنا ليرينا ما ينتظرنا هناك.

وحين وصلنا...وجدنا الفوضى وقد التهمت المكان.

المشغل ملقى على الأرض، يتنفّس بصعوبة، وجهه شاحب، رأى شيئًا لا يستطيع عقله تحمّله.

إلى جانبه كانت المديرة تركع، تهزّ كتفه بقوة وهي تصرخ:

- استيقظ! أخبرني ما الذي حدث! من شغّل المكسر؟!

أما عبدالله... فكان واقفًا كتمثال، يداه ترتجفان، ولونه يغادر وجهه ببطء.

كان تنفيذ يجلس أمامه، يحاول أن يستخرج منه أي كلمة مفهومة.

قال تنفيذ بصوت قلق:

- عبدالله... ماذا حدث؟ قل كلمة واحدة!

لكن عبدالله ظلّ صامتًا، كأن صوته عالق في حلقه.

اقتربنا منه أكثر...وكنت أشعر أن روحي ترتجف رغم أنها مفصولة عن الجسد.

رفع عبدالله رأسه أخيرًا... ببطء كأن رقبته مصنوعة من حجر...

ونظر إلى الفراغ أمامه... إلى حيث نقف نحن... دون أن يدرك أننا هناك.

ثم قال بصوت مكسور، متقطع، وكأنه يجاهد كي لا يصرخ من جديد:

- أنا... لم أقتله... لم ألمسه...

تنفس بصعوبة، ثم تابع:

- هو قفز... قفز بنفسه حين بدأ الميكسر بالدوران...

سكت، ثم ضغط بيده على وجهه كمن يحاول محو صورة محفورة داخل جمجمته.

- رأيته... رأيت جسده ينزل بسرعة لا يمكن إيقافها... ثم...

ازدادت رجفتاه، فجلس على الأرض دون وعي.

اقترب تنفيذ منه أكثر.

- ثم ماذا يا عبدالله؟ ماذا رأيت؟

لكن عبدالله كان يتحدث بصوت لا يُصدره إلا من رأى كابوسًا استيقظ منه وهو ما زال يعيش بداخله:

- بعدها... رأيت المشهد الذي لا يمكن نسيانه. جسده يتقطع، جزء بعد جزءٍ، وسط صرخات مكتومة تخنق الأنفاس، لم أستطع لم أستطع الحركة... رجلاي لم تتحركا... كأن شيئًا كان يمسك بي.

كنت واقفًا... وأراه يتفكّك شيئًا فشيئًا...كان يحاول التشبث بأي شيء، لكن كلما مد يده ظهرت سكينة أخرى، لتقطع ما تبقى منه.

- ثم سمعتُ صوته... آسر... كان يصرخ... بطريقة ليست بشرية...

ابتلع ريقه عبدالله بصعوبة،ثم اكمل:

ثم تأتي سكين أخرى... تشدّه... تكسره... تكسر ما تبقى من يده...

كأنه مصنوع من هشاشة لا يراها أحد.

تراجع رأس عبدالله للخلف وهو يصف المشهد، وكأنه يراه أمامه من جديد:

- كنتُ أسمع صوت عظامه... كانت تتكسر... تنضغط... تمتدّ في اتجاهات متعاكسة... لم أكن أقدر على الصراخ... ولا حتى الهرب...

ثم مسح وجهه بقوة.

- وعندما حاول إمساك شيء آخر... رأيت آخر حركة من جسده... قبل أن...

صمت عبدالله بعد ذلك لم يعد قادرًا على الكلام.

حتى تنفيذ توقف عن السؤال، كأن شيئًا في عيني عبدالله أخبره أن الإجابة أسوأ من أن تُقال.

في الخلفية، سمعتُ المديرة تصرخ على المشغل:

- ماذا حدث لك؟! ماذا رأيت؟!

لكن المشغل ظل صامتًا، لا ينبس بكلمة، عيناه مفتوحتان لكنهما لا تريان شيئًا.

تقدم عبدالله أكثر نحو تنفيذ، وقال بصوت خافت:

- عندما سمعتُ صراخًا اخر من أسفل المِكسر..ركضتُ إلى غرفة التشغيل لا اعلم كيف ركدت ولكني عندما سمعت صراخ قدماي قادتني الي الاسفل بسرعه لو ركدت في البدايه لعلني لحقته

ولكني تجمدت اقسم ان امر وقوفي لم يكن عن قصد ولكني لم اكن اعلم ماذا افعل.

كنتُ أقف بجانب خالد، أراقب المشهد، وأنا أشعر بشيء يشبه الغرق… غرق الروح.

لا جسد يُمسك بي، ولا هواء أستطيع أن أبتلعه… فقط ثِقل لا يشبه أي شيء.

رفع عبدالله رأسه وهو يحدّق في الأرض أمامه:

– نزلتُ إلى الأسفل… وسمعتُ المشغل وجدته كما تروه الان وحين وصلتُ…

ارتجف صوته:

– لا اومه عما اظن انه عندما راي دم اسر يتساقط…ثم فهمتُ…

إنه ظن أن هو سبب ما حصل ياليت قلبه كان أقسى من ذلك وعرف أنه ليس مسؤولًا عن شيء…

– كنا نحن...نحن الاثنان...

أصبح صوته كحرير يتمزق:

– خرجتُ أنا وآسر من المكان بعد التكسير... لم أتوقع... لم أكن أعلم أنه سيقفز...

– ثم... عندما أطفأتُ الجهاز... صعدتُ إلى الأعلى...ولم أجد إلا...بقايا...بقايا لا أعرف كيف أصفها...أجزاء... لا تشبه شيئًا عرفته من قبل...

غطّى وجهه بيديه، وبكى بدموع لم تُسمع... بل شعرت بها وأنا واقف روحًا بلا جسد.

أما أنا... فكنت أقف قربه، أراه... وأسمعه...لكنني لا أستطيع أن ألمسه...ولا أن أقول له:

ـ أنا هنا يا عبدالله... أنا هنا...

وخالد يقف بجانبي، يهمس:

- لن يسمعك... انتهى الأمر يا آسر... انتهى...

كانت المديرة تقترب من جسد المشغّل الملقى على الأرض، يده ما زالت قابضة على ذراع المقعد، وعيناه نصف مفتوحتين كأن الرعب لم يسمح لهما بالارتخاء حتى وهو فاقد الوعي.

انحنت بسرعة، وضعت أذنها على صدره...

مرت ثانية...

ثم ثانية أخرى...

ثم رفعت رأسها ببطء، ووجهها يتحول إلى شحوب مرعب.

- لا... لا نبض...!

ثم صرخت بكل ما بقي في صدرها من قلق:

- تنفيــذ!! اتصل بالإسعاف حالًا!!! بسرعة!!!!

ارتبك تنفيذ، سحب هاتفه بيد مرتجفة وركض نحو الباب وهو يصرخ بالرقم.

أما عبدالله فبقي جالسًا، يحدّق في الأرض وكأنه يسمع الصرخات من عالم بعيد جدًا.

في تلك اللحظة...شعرتُ أنا بأن شيئًا غريبًا يحدث داخلي.

كأن الضوء الذي يُمسكني يتهاوى...كأن جسدي غير الموجود يفقد توازنه.

نظرتُ إلى يدي...كانت شفافة أكثر من قبل.

حتى صوتي حين حاولت الكلام خرج كصدى بعيد.

- خالـد...! أنا... ماذا يحدث لي...؟

نظر إليّ خالد نظرة طويلة، فيها شيء يشبه الحزن وشيء يشبه الحقيقة التي تأخر قولها.

وقال بصوت هادئ، خالٍ من أي محاولة للتهوين:

– يبدو أنك لن تدوم طويلًا يا آسر... روحك بدأت تتفكك... هذا ما يحدث عادة حين يموت الجسد بهذه الطريقة ولا يكون لديها رابط لها بالحياة.

– ستختفي نهائيًا.

نظرتُ حولي... إلى عبدالله... إلى تنفيذ... إلى المديرة...

إلى المكان الذي تمزق فيه جسدي.

لم أشعر بالخوف...كنت فقط... متعبًا.

– لا بأس...

قلت بصوتٍ خرج كأن أحدًا آخر ينطق به بدلاً مني.

– لقد رأيتُ... ما يكفي.

استدرتُ مبتعدًا، وخالد معي، حتى وصلت إلى غرفتي.

فتحتُ الباب دون لمس... الجسد لم يعد يعنيني.

دخلتُ، وجلستُ فوق السرير، ثم استلقيت كمن يريد أن يهرب من العالم كله.

جلس خالد على الطرف الآخر من السرير، ينظر إليّ بصمت.

ظللت أحدّق في السقف قليلًا... ثم خرج السؤال الذي كان يثقل صدري منذ زمن:

– خالد...

– لماذا لم تحبّني ليان؟

– هل كنت سيئًا... لهذه الدرجة؟

تنهد خالد... كأنه يعرف هذا السؤال منذ زمن، لكنه كان ينتظر أن أقوله بصوتي.

– لا يا آسر... لم تكن سيئًا.

– كنت مختلفًا... وهذا ليس ذنبك.

– لكنها... ببساطة... لم تكن مناسبة لك.

– لو كانت لك، لجعلها القدر بين يديك دون أن تبذل كل هذا الألم.

أغمضتُ عيني، وقلتُ بصوتٍ ينكسر من الداخل:

– لكنني أحببتها...أحببتها حُبًا لم أُعطه لأحد.

– تجاهلتُ كل فتاة... وكل فرصة... وكل باب آخر...لأجلها هي فقط.

– كيف تريدني أن أقبل... أن تتزوج من غيري؟

– كيف أتركها؟

– وأنا... ما زلت أحبها... حبًا جمّا... حتى وأنا ميت.

سكتُّ...وسكت خالد أيضًا.

والغرفة امتلأت بثقل لا يستطيع حمله إلا من فقد كل شيء.

ظللتُ ممددًا على السرير، أنظر إلى سقف الغرفة الذي صار بعيدًا وكأنه سماء أخرى.

أما خالد فكان يجلس بجانبي، صامتًا، ينظر إليّ كأن شيئًا ثقيلًا

عالقًا في صدره هو أيضًا.

بدأ الضوء حول جسدي يتلاشى شيئًا فشيئًا...

صرت أرى أطراف يديّ وكأنها غبار شفّاف يتفتت مع كل نفس لا

أحتاجه.

همستُ دون أن ألتفت إليه:

– خالد... هل انتهى كل شيء؟

أجاب بصوت خافت، فيه صدق لا يحتمل:

– نعم يا آسر... النهاية وصلت...وسترحل الآن من هذا العالم كما

رحل جسدك قبلك.

ابتسمت... ابتسامة صغيرة، لا فرح فيها ولا حزن... مجرد استسلام.

– أشعر... أن كل شيء أصبح خفيفًا...حتى الألم... اختفى.

نظر خالد إليّ طويلًا، ثم قال:

– رغم كل ما حدث... أنت لم تكرهني، وهذا... سيظل سرًّا لا أفهمه.

أخذتُ نفسًا لا حاجة لي به، ثم قلت:

– لأن الكراهية... آخر ما تبقّى من البشر...وأنا لم أعد منهم.

ساد الصمت.

بدأت ملامحي تتلاشى، أصابعي امتزجت بالهواء، صوتي صار أصداء متكسّرة.

قال خالد وهو يراقبني:

– اغمض عينيك يا آسر... الرحلة لا تحتاج أن تراها.

أغمضتُ عيني...لأوّل مرة أشعر أن العتمة ليست ظلامًا... بل راحة.

سمعت صوت خالد آخر مرة:

– إلى لقاء... إن كان في الوجود لقاءٌ آخر.

وما إن انتهت كلماته...حتى شعرت بجسدي الروحي ينهار إلى ضوء رقيق...ثم إلى ذرات...ثم إلى عدم.

اختفيت.

* * *

اختفت روح آسر بهدوءٍ غريب، وكأنها انزلقت من بين لحظات العالم دون أن تترك خلفها صدى. بقي خالد جالسًا في مكانه، ينظر إلى سقف الغرفة نظرة طويلة لا يعرف لها تفسيرًا، كأنه يحاول استيعاب فراغٍ لم يعتد وجوده. لم يقل شيئًا، فقط ظلّ ساكنًا كأن الصمت أصبح جزءًا منه.

ولكي تُخفي المحطّة ما حدث تلك الليلة، نُقل المشغّل إلى المستشفى في سرعة صامتة، وهناك توقّف قلبه بهدوء، كما لو أن الجسد رفض متابعة ما بدأته الليلة السابقة. دُفن ما بقي من جسد

آسر بعيدًا عن الأنظار، دون تجمع أو حديث، فقط إجراء بسيط ليغلقوا صفحة لا يريد أحد فتحها.

توقّفت المحطّة يومين، بدت خلالهما كأنها تفكّر أو تستعيد أنفاسها، ثم عادت للعمل بهدوئها المعتاد، وكأن شيئًا لم يغيّر مسارها... ولا كأن روحًا اختفت بين جدرانها في تلك الليلة.

تمت بحمد الله